جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

تَفَاوتُ الدِّلَالَةِ عَلَى الكَرَمِ بِاسْتِخْدَامِ الكَلْبِ فِي شِعْرِ شَبِيْبِ بن البَرْصَاءِ ونُصَيْبٍ وابنِ هَرْمَةَ دِرَاسَةً بَلَاغِيَةً مُوَازِنَةً

إعداد

د/ عمر عبد الراضي عكاشة جاد الرب
المدرس بقسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية بجرجا ـ جامعة الأزهر

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الثاني ٠٠٠أكتوبر)
(الجزء الثاني (١٤٤٥هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٣/٦٢٧١م

تَفَاوتُ الدِّلَالَةِ عَلى الكَرَمِ بِاسْتِخْدَامِ الكَلبِ في شِعْرِ شَبِيْبِ بن البَرْصَاءِ ونُصَيْبٍ وابنِ هَرْمَةَ دِرَاسَةً بَلَاغِيةً مُوَازِنَةً.

عمر عبد الراضي عكاشة جاد الرب

المدرس بقسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بجرجا . جامعة الأزهر

البريد الإلكتروني: omarabdelready.2040@azhar.edu.eg

الملخص:

الهدف من البحث دراسة "تَفَاوتُ الدِّلَالَةِ عَلى الكَرَمِ بِاسْتِخْدَامِ الكَلبِ في شِعْرِ شَبِيْبِ بنِ البَرْصَاءِ ونُصَيْبٍ وابنِ هَرْمَةَ دِرَاسَةً بَلَاغِيةً مُوَازِنَةً"، والذي تفاوتت فيه مراحل إلْف الكلب للضيفان، مع بيان الفرق بين قول كل منهم في استخدام الكلب للدلالة على الكرم، وبيان مَنْ كان له القِدح المُعَلَّى في تعبيره، وتحليل ذلك بالمنهج التحليلي التكاملي البلاغي، وقد جاءت الدراسة في ثلاثة مباحث، المبحث الأول ـ بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بنَبْح الكَلْبِ للضيف وزَجْرِهِ، والمبحث الثاني ـ بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بأُنْس الكلب بالضيف، والمبحث الثالث ـ بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بمبادلة الكَلَام للكلب وفرحه بالضيف، ومن النتائج التي توصل إليها البحث: أن الدراسة تناولت ثلاثة وعشرين بيتًا، منها أحد عشر بيتًا في نبح الكلب للضيف، وبيتان في زجره للضيف، وبيت واحد في جبنه أمام الضيوف، وستة أبيات في أُنْسه بالضيف، وبيت واحد في محاولة كلامه للضيف، وبيتان في فرحه بالضيف، ومن خلال ذلك تبين تفاوت الدلالة على الكرم باستخدام الكلب، وجاء ترحيب الكلب عند ابن هَرْمَة في قوله: (يَكادُ إِذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلاً يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أَعجَمُ) أبلغ من ترحيب الكلب عند نُصَيْب في قوله: (وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ مِن الأُمِّ بِالابْنَةِ الزَّائِرَهْ)؛ لأن نُصَيْبًا جعل للكلب أُنْسًا بالزائرين، بينما ابن هَرْمَة جعل الكلب يحاول أن يكلم الضيف رغم عجمته، فجعل للكلب الأعجم الفصاحة في صورة مجازية خلابة، وتجد أنهما صورة متآلفة للكناية عن المعنى الواحد، ويمكن أن يقال: صُدِّرَ

بيت ابن هَرْمَة بالفعل "يَكَادُ"، والضمير فيه عائد على الكلب، ليُخرج المبالغةَ عن الغلو غير المقبول، ولكن حَمل البيت على المجاز أَخْلَب؛ لأن قُدرة المجاز على انطاق الأعجم أبلغ، وجاء اجتماع كنايتين في بيت واحد، لكن ليس بينهما قرابة شديدةً ونسبًا لاصقًا، كما في قول القائل: (جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيلِ)، وهما: (جَبَانُ الكَلْبِ)، وجُبْن الكلب يستلزم كثرة زجره عند تردد الضيوف في وقت الظُلمة على بيت صاحبه ذهابًا وإيابًا، واستمرار زجره يؤدي إلى جُبْنِه، وهذا يدل على الكناية عن كرم صاحبه، و(مَهْزولُ الفَصِيلِ) يستلزم فَقْدَ أمه أو فَقْدَ لبنها؛ لأن هُزَال الفصيل لا يكون إلا بِفَقْدِ أحدهما، إما بذبح أُمِّه، أو تقديم لبنها للضيوف، وهذا يستلزم الكناية عن كرمه، ولكن ليست إحدى الكنايتين نظيرًا للأخرى، أي: بينهما قدر من الاختلاف؛ لأن (كل واحدة من هاتين الكنايتين أصلٌ بنفسه، وجنس على حدة) ـ كما قال الإمام عبد القاهر الجرجاني ـ رغم أن المعنى المكني عنه واحد، وهو الكرم.

الكلمات المفتاحية: الدلالة على الكرم ـ باستخدام الكلب ـ ابن البَرْصَاءِ ـ نُصَيْب ـ ابن هَرْمَةَ.

Variation in The indication of generosity by using The dog in The poetry of Shabib bin Al-Barsa, Naseeb and Ibn Harmah, a balanced rhetorical study.

Omar Abdul Radi Akasha jad alrab.

Lecturer, Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Gerga, Al-Azhar University.

Email: omarabdelready.2040@azhar.edu.eg.

Abstract:

The aim of the research is to study "the variation in the indication of generosity by using the dog in the poetry of Shabib bin Al-Barsa, Naseeb and Ibn Harmah, a rhetorical and balancing study", in which the different stages of Wrapping the dog for the two guests, with an indication of the difference between what each of them said about using the dog to denote generosity, and an indication of who had it The exalted invective is in its expression, and analyzed by the analytical, integrative, rhetorical approach. The study came in three sections, the first topic: the eloquence of the metaphor for generosity by expressing the dog barking at the guest and its rebuke, and the second topic: the eloquence of the metaphor for generosity by expressing the friendliness of the dog to the guest, and the third topic: the eloquence of the metaphor for the guest Generosity is expressed by exchanging words for the dog and its joy for the guest, and among the results of the research: that the study dealt with twenty-three verses, of which eleven verses are about the dog's barking at the guest, and two verses about his rebuking of the guest, and one verse about his cowardice in front of the guests, and six verses about his intimacy with the guest, and a verse One in his attempt to speak to the guest, and two verses in his joy with the guest, and through that it became clear that the indication of generosity varies by using the dog. In his saying: (And your dog is intimate with visitors from the mother to the visiting daughter); Because a share was given to the dog by people with visitors, while Ibn Hurmah made the dog try to speak to the guest despite his blindness, so he gave the dog the eloquence in a wonderful metaphorical image, and you

find that they are a coherent image of a metaphor for the same meaning, and it can be said: The house of Ibn Hurmah was issued by the verb "almost". And the pronoun in it returns to the dog, to exaggerate the unacceptable hyperbole, but carrying the house on the metaphor is more clawed; Because the ability of the metaphor to extend to non-Arabs is more informative, and two metaphors came together in one house, but there is no close kinship between them and a sticky lineage, as in the saying of the one who said: (a cowardly dog is short-bred), and they are: (a cowardly dog), and the dog's cowardice entails frequent rebuke when the guests hesitate. At the time of darkness on his owner's house back and forth, and the continuation of his rebuke leads to his cowardice, and this indicates a metaphor for the generosity of his owner. Because the emaciation of the faction is only by losing one of them, either by slaughtering its mother, or offering her milk to the guests, and this necessitates a metaphor for his generosity, but one of the two metaphors is not equivalent to the other, that is: there is a degree of difference between them; Because (each of these two metaphors has an origin by itself, and a genus separately) - as Imam Abd al-Qaher al-Jurjani said - although the implicit meaning of it is the same, which is generosity.

Keywords: ***Indicating Generosity , Using The Dog , Ibn Al-Barsa ,Naseeb , Ibn Harmah.***

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على من شق ظلام الجهالة بالهدى، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه، وكان بالمؤمنين رحيمًا.

وبعد:

فإنه لما كان الشعر ديوان العرب؛ لذلك سجّل العرب كل ما حدث منهم أو بينهم من أمور صغيرة أو كبيرة سياسيةٍ، أو دينيةٍ، أو اجتماعيةٍ، أو غير ذلك، عن طريق الشعر العربي، ومما سجله الشعر لهم في حياتهم الاجتماعية مواقفهم الدالة على الكرم، وسجل لهم ـ أيضًا ـ مشاعر الحيوانات التي تسكن معهم، وتدل على مواقفهم تجاه الآخرين بالحب، أو الكره، أو الكرم، أو البخل، أو غير ذلك، وقد اخترت من هذه المواقف مشاعر الكلب الذي يسكن معهم، ولا يفارق منازلهم التي يحرسها ليلًا ونهارًا، وهو بمثابة المرآة العاكسة لمواقفهم الدالة على كرمهم أو بخلهم، ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة: (تَفَاوتُ الدِّلَالَةِ عَلى الكَرَمِ بِاسْتِخْدَامِ الكَلبِ في شِعْرِ شَبِيْبِ بنِ البَرْصَاءِ ونُصَيْبٍ وابنِ هَرْمَةَ دِرَاسَةً بَلَاغِيةً مُوَازِنةً)، والتي تسير في ركب الدراسة البلاغية القائمة على المنهج التحليلي.

والهدف من البحث دراسة شعرهم الذي تفاوتت فيه مراحل إلْف الكلب للضيفان دراسة بلاغية موازنة، مع بيان الفرق بين قول كل منهم في استخدام الكلب للدلالة على الكرم، وبيان مَنْ كان له القِدح المُعَلَّى في تعبيره، وتحليل ذلك بالمنهج التحليلي التكاملي البلاغي.

ومما لا شك فيه أن استخدام الكلب في الدلالة على الكرم ورد كثيرًا في الشعر العربي، ويحتاج إلى دراسات مُطَوَّلَة لبيان الكشف عنها، وتجلية أسرارها، ولكني

اقتصرتُ على شعر هؤلاء الثلاثة؛ لأنهم جمعوا مراحل إلْفِ الضيفان، وأولها- مرحلة نَبْح الكلب وزَجْرِهِ وجُبْنِهِ، وثانيها - مرحلة الأُنْس بالضيفان، وثالثها - مرحلة محاولة كلام الكلب مع الضيف وفرحه به، وقد اخترت هؤلاء الشعراء الثلاثة؛ لأن وفاتهم كانت في قرن واحد، وهذا يدل على قرب حياتهم من بعض، فشَبِيْبِ بن البَرْصَاء توفي سنة ١٠٠هـ، ونُصَيْب توفي ١٠٨هـ ، وابن هَرْمَة توفي ١٧٦هـ، هذا بالإضافة إلى أن استخدامهم الكلب في الدلالة على الكناية عن الكرم في شعرهم يُعَدُّ مِن فاخر الشعر العربي، وهذه سماها الإمام عبد القاهر بـ : الصَّنْعة في طريق الإثبات، وهي نظير الصَّنْعة في المعاني إذا جاءت كناياتٍ عن معانٍ أُخَر، نحو قوله:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي ∴ جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيلِ[1]

فكما أنه إنما كان من فاخر الشعر، ومما يقع له في الاختيار "يعني اختيار أبي تمام له في الحماسة"...)[2].

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على دواوين هؤلاء الشعراء الثلاثة، وعلى كتب التراث وغيرها التي روت الروايات الأخرى لمواطن استخدام الكلب في شعرهم، والفرق بين هذه الروايات، مع بيان المناسب منها في سياق الدلالة على الكرم، كما سيأتي بيانه في هذه الدراسة التي أستمد من الله تعالى العون والتوفيق فيها، وأسأله تعالى العصمة من الذلل والخطأ.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

---

(١) البيت غير منسوب في شرح ديوان الحماسة للأصفهاني، ت:غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ١١٥٥.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: الشيخ محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة وجدة، ط الثالثة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ٣٠٧.

المقدمة: ذكرت فيها أهمية البحث، وأهدافه، ومنهجه.

التمهيد: ذكرت فيه تعريفًا موجزًا لـ "شَبِيْبِ بن البَرْصَاء ت ١٠٠هـ، ونُصَيْب ت ١٠٨هـ، وابن هَرْمَة ت ١٧٦هـ.

المبحث الأول ـ بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بنَبْح الكَلْبِ للضيف وزَجْرِهِ.

المبحث الثاني ـ بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بأُنْس الكلب بالضيف.

المبحث الثالث ـ بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بمبادلة الكَلَام للكلب وفرحه بالضيف.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي اشتملت عليها الدراسة، ثم ذكرتُ فهرسًا للمصادر والمراجع، ثم فهرسًا للموضوعات.

وقد حرصتُ على تحليل كل موطن من مواطن استخدام الكلب في الدلالة على الكرم في شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة تحليلًا بلاغيًا يقوم على تجلية معناه، مع بيان الفرق بين الروايات المتقاربة له في المعنى، والكشف عن خصوصيات المعاني داخل كل موطن، وبيان مَنْ كان له القِدح المُعَلَّى في تعبيره.

وأرجو أن تكون هذه الدراسة إضافة جديدة إلى حقل الدراسة البلاغية القائمة على تذوق الشعر العربي، وعلى الله قصد السبيل، وهو ولي التوفيق.

د/ عمر عبد الراضي عكاشة جاد الرب

التمهيـــد

شَبِيْبُ ابن البَرْصَاء ت ١٠٠ هـ / ٧١٨ م:

هُوَ شَبِيبُ بن يزِيد من بني ذبيان شَاعِر فصيح إسلامي بدوي كَانَ يهاجي عقيل بن علفة وَكِلَاهُمَا كَانَ شريفًا سيدًا[١] ، وزاد صاحب الأعلام: هو شَبِيبُ بن يزيد جمرة بن عوف بن أبي حارثة المري، ابن البَرْصَاء، شاعر إسلامي بدوي لم يحضر إلا وافدًا أو منتجعًا، عنيف الهجاء، اشتهر بنسبته إلى أمه أُمامة (أو قرصافة) بنت الحارث ابن عوف المري المنعوتة بالبَرْصَاء؛ لبياضها لا لبرص فيها، قيل: إن النبي ـ ﷺ ـ همّ بأن يتزوجها، أدرك إمارة عثمان بن حيان في المدينة، وعده الجمحيّ في الطبقة الثامنة من الإسلاميين، وقال صاحب الخزانة: كان شريفًا سيدًا في قومه من شعراء الدولة الأموية، توفي١٠٠ هـ/ ٧١٨م[٢].

نُصَيْب بن رباح ت ١٠٨هـ / ٧٢٦م:

هو (نُصَيْب الأَكْبَر): نُصَيْب بن رَبَاح مولى عبد العَزِيز بن مروانَ، كَانَت أمه سَوْدَاء فَوَقع عَلَيْهَا أَبوهُ فَجَاءَت بِنُصَيْب فَوَثَبَ إِلَيْهِ عَمه بعد وَفَاة أَبِيه فَبَاعَهُ، وَكَانَ شَاعِرًا فَحلًا مقدَّمًا فِي النسيب والمديح، وَلم يكن لَهُ حظٌّ فِي الهِجاء، وَكَانَ عفيفًا، توفّي فِي حُدُود العشْرين وَالمِائَة [٣]، وزاد صاحب الأعلام: هو نُصَيْب بن رباح، أبو محجن، مولى عبد العزيز بن مروان: شاعر فحل، مقدم في النسيب والمدائح، كان عبدًا أسود لراشد بن عبد العزّى من كنانة من سكان البادية، وأنشد أبياتًا بين يدي

---

(١) الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي، ت: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى ١٦/ ٦٠ ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ط ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(٢) الأعلام للزركلي ٨ / ٣١ ، دار العلم للملايين، ط الخامسة عشر ٢٠٠٢م.

(٣) الوافي بالوفيات للصفدي ٢٧/ ٥٨.

عبد العزيز بن مروان، فاشتراه وأعتقه، وكان يتغزل بأم بكر "زينب بنت صفوان" وهي كنانية، وفي بعض الروايات "زنجية" ومن شعره فيها قصيدة مطلعها:

بزينَب ألمم قَبل أن يَدخل الرَكب ∴ وَقُل إن تَمَلَّينا فَما مَلَّك القَلب[١]

له شهرة ذائعة، وأخبار مع عبد العزيز بن مروان وسليمان بن عبد الملك والفرزدق وغيرهم، وكان يعدُّ مع جرير وكُثَيِّر عزة، وسئلَ عنه جرير، فقال: أشعر أهل جلدته، وتنسك في أواخر عمره، وكان له بنات من لونه، امتنع عن تزويجهن للموالي، ولم يتزوجهن العرب، فقيل له: ما حال بناتك؟ فقال: صببت عليهنّ من جِلدي (بكسر الجيم) فكسدن عليّ! قال الثعالبي: وصرن مثلاً للبنت يضن بها أبوها فلا يرضى من يخطبها، ولا يرغب فيها من يرضاه لها، وعناهنّ "أبو تمام" بقوله:

أَما القَوافي فَقَد حَصَّنْتَ عُذرَتَها ∴ فَما يُصَابُ دَمٌ مِنها وَلا سَلَبُ

إلى أن يقول:

كانَت "بَناتِ نُصَيبٍ" حينَ ضَنَّ بِها ∴ عَنِ المَوالي وَلَم تَحْفِلْ بِها العَرَبُ

قال التبريزي (في شرح ديوان أبي تمام): وينشد في هذا المعنى بيت لم أجده منسوبًا إلى نُصَيْب، وهو:

كسدن من الفَقرِ في بيتِهِنَّ ∴ وَقَد زادَهن سوادي كُسُودَا[٢]

وأرخه ابن تغري بردي في وفيات سنة ١٠٨هـ، وقال الأنطاكي: توفي سنة ١١٣هـ، وقيل: ١١١هـ، وللزبير بن بكار، كتاب "أخبار نصيب"، وللدكتور داود سلوم "شِعْرُ نُصَيْب بن رباح" [٣].

---

(١) شِعْرُ نُصَيْب بن رباح ت: د. داوُد سَلّوم ٦٠ ، مكتبة د: مروان العطية، ط الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧م.

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ت: محمد عبده عزام١/ ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، دار المعارف، ط الخامسة من دون تاريخ.

(٣) الأعلام ٣/ ١٥٧.

إبراهيم بن هَرْمَة ت ١٧٦هـ:

هو إِبْرَاهِيم بن عَليّ بن سَلمَة الفِهري المدنِي، الشَّاعِر المَعْرُوف بِابْن هَرْمَة من شعراء الدولتين، نديم المَنْصُور كَانَ شيخ الشُّعَرَاء فِي زَمَانه، وَكَانَ مُنْقَطِعًا إِلَى الطالبيين، قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ: هُوَ مقدم فِي شعراء المُحدثين قدمه بَعضهم على بشار بن برد، وعَلى أبي نواس...، قد مَاتَ وَمَا يحمل جنَازَته إِلَّا أَرْبَعَة نفر لَا يتبعهَا أحد حَتَّى دفن بِالبَقِيعِ، وَكَانَت وَفَاته بعد المِائَة وَالخمسين تَقْرِيبًا، وَكَانَ الأَصْمَعِي يَقُول: ختم الشّعْر بِابْن ميادة، وَالحكم الخضري، وَابْن هَرْمَة، وطفيل الكِنَانِي، ومكين العذري[١]، وزاد صاحب الأعلام: شاعر غزل من سكان المدينة، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، رحل إلى دمشق، ومدح الوليد بن يزيد الأموي فأجازه، ثم وفد على المنصور العباسي في وفد أهل المدينة فتجهّم له، ثم أكرمه، وانقطع إلى الطالبيين، وله شعر فيهم، وهو آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم، قال الأصمعي: ختم الشعر بابن هَرْمَة، وكان مولعًا بالشراب، جلده صاحب شرطة المدينة، ولأبي بكر محمد بن يحيى الصولي كتاب (أخبار ابن هَرْمَة)[٢]، قال ابن المعتز: ومما يستجاد من شعره قوله:

قَد يُدرِكُ الشَرَفَ الفَتى وَرِداؤُهُ ∴ خَلِقٌ وَجَيبُ قَميصِهِ مَرقوعُ [٣]

(١) الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٤٠، ٤١.

(٢) الأعلام ١/ ٥٠، ٨/ ٨٣، وديوان إبراهيم بن هَرْمَة ت: محمد جبّار المعيبد ٢٣، مكتبة الأندلس، ط الآداب في النجف الأشرف، بغداد، ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز، ت: عبد الستار أحمد فراج ٢١، دار المعارف، القاهرة، ط الثالثة، من دون تاريخ، والبيت في ديوان إبراهيم بن هرمة، ١٤٥.

المبحث الأول

بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بنَبْح الكَلْبِ للضيف وزَجْرِهِ

نَبْح الكَلْبِ للضيف عند إبراهيم بن هَرْمَة:

قال إبراهيم بن هَرْمَة:

وَسَلِ الجارَ وَالمُعَصِّبَ وَالأضـ ∴ يافَ وَهنًا إِذا تَحَيّوا لَدَيّا[١]

كَيفَ يَلقَونَني إِذا نَبَحَ الكَلـ ∴ بُ وَراءَ الكُسُورِ نَبحًا خَفيّا[٢]

وَمَشى الحالِبُ المُبِسُّ إِلى النا ∴ بِ فَلَم يقرِ أَصفَرَ الحَيِّ رَيّا[٣]

لَم تَكُن خارِجيَّةً مِن تُراثٍ ∴ حادِثٍ بَل وَرِثتُ ذاكَ عَليّا[٤]

استهل ابن هَرْمَة مقطوعته بقوله: (وَسَلِ الجارَ وَالمُعَصِّبَ وَالأضيافَ...)، كأنه جَرَّدَ[٥]، من نفسه سائلًا يسأل هؤلاء الثلاثة، "الجار، والمُعَصّب، والأضياف"، وخصهم بالذكر؛ لأن الجيران هم أقرب الناس إليه، فهم أعرف الناس به لسعادتهم بمجاورته، ومن جاور السعيد يسعد بسعادته، ومن جاور الشقي يشقى بشقاوته، وخص المُعَصّب بمعنى: الذي يتعَصّب بالخِرَق من الجوع، أو الرجل الفقير؛ لأنهم

---

(١) المُعَصِّبَ: الَّذِي يَتَعَصَّبُ بالخِرَقِ مِنَ الجُوعِ...، وَرَجُلٌ مُعَصَّبٌ: فَقِيرٌ، وهو هنا: منتصف الليل أو بعده، ينظر لسان العرب لابن منظور (عصب)، دار صادر، بيروت، ط الثالثة، ١٤١٤هـ.

(٢) الكُسُور: أعضاء الإبل أو أجزاؤها بعد ذبحها، ينظر: العين للخليل بن أحمد تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي (كسر)، ط دار ومكتبة الهلال، من دون تاريخ.

(٣) المُبسُّ: المُتَلَطِّفُ للنّاقة المُسَكِّنُها بكلامٍ حتى يحلُبَها...، وأبسّ بالنّاقة إبساسًا: دعاها للحلب، العين (بسّ)، والنّاب: النّاقةُ المُسِنّة، السابق (ناب)، والأصفر: الجائع، لسان العرب (صفر).

(٤) ديوان إبراهيم بن هَرْمَة ٢٤٦، ٢٤٧.

(٥) التجريد: هو إخلاص الخطاب إلي غيرك وأنت تريد به نفسك. الطراز للعلوي، ت: د. عبد الحميد هنداوي ٤١/٣، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

طلاب معروفه المترددين على بيته ليلًا ونهارًا، أما إذا كان المعَصّب بمعنى: منتصف الليل أو بعده، فهو مجاز مرسل[1]، علاقته المحلية، وهي أن يذكر المحل ويراد الحال به، وهم هنا أهل المعصب، أي: واسأل أهل المعصب، فسمي الحال باسم محله مجازًا مرسلًا، وفي العدول عن الحقيقة إلى المجاز إشارة إلى ذيوع واشتهار كرمه إلى درجة أنه لو سئلت الجمادات لنطقت وأجابت بكرمه، ويكون تخصيص الذكر بمنتصف الليل؛ لأن الضيف غالبًا يكون مجيئه في ذلك الوقت، وخص الأضياف بالذكر؛ لأنه بهم يُعرف الكريم من البخيل، وأما قوله: (كَيفَ يَلقَونَني إِذا نَبَحَ الكَلبُ...) آثر التعبير بالفعل المضارع "يلقونني"؛ لكي يصور استحضاره لقاء هؤلاء الثلاثة الذين خصهم بالذكر؛ وللدلالة على تجدد لقائه بهم مرة بعد أخرى، ومن المعلوم أن نبح الكلب وزجره هو أول مراحل الكرم؛ لأن الكلب هو أول مستقبل لهم يدله عليهم بصوت نباحه، ولكن الشاعر هنا جعل نبح كلبه هنا أثناء تكسير عظام الناقة التي ذبحها لضيوفه، فما معنى نبح الكلب إذن في ذلك الوقت؟ لقد سارع الشاعر في تفسير نبح كلبه في ذلك الوقت وقال: "وَراءَ الكُسورِ نَبحًا خَفيّا"، وبين أن نبح كلبه كان نبحًا خفيًا من أجل شدة البرد، ويمكن تفسير لفظ "وَرَاء" بمعنى: خلف، أو بمعنى: أمام[2]، أي: أن النبح الخفي للكلب هنا كان خلف الناقة المذبوحة، أو أمام ذبح الناقة للضيوف، وتلك حالة للكلب تدل على فرحه وتشوقه للأكل من هذه الناقة،

---

(١) هو ما كانت العلاقة بين ما استعمِلَ فيه وما وُضِعَ له ملابَسَةً غير التشبيهِ، كاليَدِ إذا اسْتُعْمِلَتْ في النِّعْمَة، الإيضاح للخطيب القزويني، ت: د. محمد عبد المنعم خفاجي ٢٩٢، مكتبة المعارف، الرياض، ط الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

(٢) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد، ت: رمزي منير بعلبكي (ورأ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط الأولى١٩٨٧م.

ويستلزم من ذلك أكل الضيف منها ـ أيضًا ـ، وهذا يستلزم الكناية[١] عن كرمه ووفرة جوده، ثم قال: (وَمَشى الحالِبُ المُبِسُّ إِلى النابِ...)، أي: ومشى الحالب المُبِسُّ، أي: المتلطف عند حلبه للناقة المُسِنّة، والمعنى على مدح نفسه بالكرم ـ أيضًا ـ في ذهاب المبس للحلب لإكرام الضيف باللبن حتى ينضج اللحم، وهذا يدل على تعدد الكرم بالشراب والطعام خاصة وأنه عبر بالمبس، أي: الذي يحرص على الحلب عن طريق التلطف للناقة بما يدعوها للحلب، ويمكن أن يكون قصد الشاعر هنا أنه يؤنس ضيوفه بذبح ناقته لهم قبل أن يتكلم معهم عن أي شيء؛ لأن ("الإيناس قبل الإبسَاس"، والإبسَاس عند الحلب أن يقال للناقة: بس، بس، وهو صويت للراعي يقول لها ذلك؛ لتدرّ للحالب، فيقال: أبسّ بالناقة يبس إبساسًا فهو مبس...، وناقة بسوس: لا تدرّ إلاّ على الإبسَاس، والمعنى إنّ الناقة لا ينبغي أن يبس بها حتى تؤنس قبل ذلك ويتلطف لها، فيضرب في أن الإنسان ينبغي أن لا يكلف أمرًا، أو يسأل حاجة حتى يتقدم إليه بتأنيس مالي أو فعلي أو قولي)[٢]، وكأن الشاعر يريد أن يبين أنه يجيد الحكمة مع صفة الكرم التي يتمتع بها، وأن ذلك طبع فيه وليس تصنعًا؛ لأنه ورث الكرم ميراثًا، ولم يكتسبه اكتسابًا، وقد وضح ذلك في البيت الأخير فقال: (لَم تَكُن خارِجيَّةً مِن تُراثٍ...)، أي: أنه ورث صفة الكرم عن أجداده وآبائه، ولم يكتسبها من أحد.

وقال أيضًا:

أنَا مَن عَلِمْتَ إِذا دُعيتُ لِغارَةٍ ∴ في طَعنِ أَكْبادٍ وَضَربِ رِقابِ

---

(١) الكناية: لفظٌ أُرِيدَ به لازمُ معناه مع جوازِ إرادة معناه حينئذٍ كقولك: "فلانٌ طويلُ النِّجادِ"، أي: طويلُ القامة، الإيضاح ت: د. خفاجي ٣٤٥.

(٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم لنور الدين اليوسي، ت: د. محمد حجي، د. محمد الأخضر ٩٧/١ ـ الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

وَإذا تَنَاوَحَتِ الشَمالُ بشَتوَةٍ ∴ كَيفَ اِرتِقابي الضَيفَ في أَصحابي

وَإذا تَنَوَّرَ طارِقٌ مُستَنبِحٌ ∴ نَبَحَتْ فَدَلَّتهُ عَليَّ كِلابي[1]

وَعَويْنَ يَستَعجِلْنَهُ فَلَقِيْنَهُ ∴ يَضْرِبْنَهُ بِشَرَاشِرِ الأَذْنابِ[2]

استهل الشاعر مقطوعته بتعريف المسند إليه بالإضمار "أنا" في قوله: (أنَا مَن عَلِمْتَ إذا دُعيتُ لِغارَةٍ...)؛ لأن المقام مقام التكلم، وجاء بجملة شرطية في قوله: (إذا دُعيتُ لِغارَةٍ...)، وخاطب نفسه على طريقة التجريد، وحذف جملة جواب الشرط؛ ليذهب بها السامع كل مذهب، فكأن الشاعر بلغ من الشجاعة ذروتها عند خوضه الحروب، ثم جاء بجملة شرطية ثانية في قوله:

وَإذا تَنَاوَحَتِ الشَمالُ بشَتوَةٍ ∴ كَيفَ اِرتِقابي الضَيفَ في أَصحابي

وخص تناوح الشمال في جملة فعل الشرط في قوله: (وَإذا تَنَاوَحَتِ الشَمالُ بشَتوَةٍ...)؛ لأن تناوح ريح الشمال أكثر ما تتقابل في وقت الليل، والليل هو أكثر أوقات الضيف طروقًا؛ ولذلك قال في جملة جواب الشرط (كَيفَ اِرتِقابي الضَيفَ في أَصحابي)، ثم جاء بجملة الشرط الثالثة في قوله: (وَإذا تَنَوَّرَ طارِقٌ مُستَنبِحٌ)، وجعل جوابها هو الكناية عن كرمه في قوله: (نَبَحَتْ فَدَلَّتهُ عَليَّ كِلابي)؛ لأن نبح الكلاب للضيف هو أول علامة يَستدل بها الضيف على مكان صاحبهم، كما يَستدل الضيف بضوء النار ليلًا على مكان موقِدِها، ولفظ "مُسْتَنبِحٌ" يجوز حمله على معنى أن

---

(١) المُسْتَنبِح: الَّذِي ينبح نبحَ الكلاب طلبًا للقِرى، أو الَّذِي يطْلب نباح الكَلْب ليهتدي بذلك فِي طَرِيقه، ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، ت: محمد عوض مرعب (باب العين والضاد مع الراء)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الأولى٢٠٠١م.

(٢) ديوان إبراهيم بن هَرْمَة ٢٥٧، شرشر الكلب: ضرب بذَنَبِهِ وحركه للأنس، ينظر لسان العرب (شرر).

الضيف يصوّت بصوته صوتًا يشبه نبح الكلاب؛ لكي يسمع الكلاب صوته فيردوا عليه بنباحهم، فيَستدل الضيف على مكان صاحبهم، وقد عبر بأداة الشرط (إذا) في قوله: (إذا دُعيتُ لِغارَةٍ...، وَإذا تَناوَحَتِ الشَمالُ...، وَإذا تَنَوَّرَ طارِقٌ مُستَنبِحٌ...)، ولم يقل مثلًا: (إن دُعيتُ لِغارَةٍ...، وإن تَناوَحَتِ الشَمالُ... وَإن تَنَوَّرَ طارِقٌ...)؛ لأن (إذا) تفيد تحقق وقوع الحدث، و(إنْ) تفيد الشك في وقوع الحدث، وهو يريد أن يبين تحقق وقوع هذه الصور التي تحدث عنها، وهذا يدل على أن شجاعة وكرم الشاعر من الأمور المحققة، وليس من الأمور المشكوك فيها، وقد جاءت هذه الصور في ثوب الشرط والجواب؛ ليزداد المعنى تأكيدًا، وليزداد السامع رغبة في سماع الجواب، وكأن أسلوب الشرط فيه تشويق لمعرفة الجواب، ويلحظ في الأبيات تعلق الشاعر بالشجاعة عامة، وبالكرم خاصة كتعلق الشرط بالجواب.

ويلحظ أن ابن هَرْمَة استخدم نبح الكلب في الدلالة على الكناية عن كرمه في المقطوعتين السابقتين في قوله:

وَسَلِ الجارَ وَالمُعَصِّبَ وَالأضـ ∴ يافَ وَهنًا إذا تَحَيّوا لَدَيّا

كَيفَ يَلقَونَني إذا نَبَحَ الكَلـ ∴ ـبُ وَراءَ الكُسُورِ نَبحًا خَفِيّا

وفي قوله:

وَإذا تَنَوَّرَ طارِقٌ مُستَنبِحٌ ∴ نَبَحَتْ فَدَلَّتهُ عَليَّ كِلابي

وَعَوِيْنَ يَستَعجِلْنَهُ فَلَقِيْنَهُ ∴ يَضْرِبْنَهُ بِشَراشِرِ الأَذنابِ

ثم أتى بمقطوعة ثالثة ـ أيضًا ـ استخدم فيها نبح الكلب في الدلالة على الكناية عن كرمه في قوله:

وَمُستَنبِحٌ نَبَّهتُ كَلبي لِصَوتِهِ ∴ وَقُلتُ لَهُ قُم في اليَفاعِ فَجاوِبِ[1]

فَجاءَ خَفِيَّ الصَوتِ قَد مَسَّهُ الضَوى ∴ بِضَربَةِ مَسنونِ الغَرارَينِ قاضِبِ[2]

فَرَحَّبتُ واستبشَرتُ حَتّى بَسَطتُهُ ∴ وَتِلكَ الَّتي أَلقى بِها كُلَّ آئِبِ[3]

فقد استهل ابن هَرْمَة مقطوعته بقوله: (وَمُستَنبِحٌ)، أي: ورُبَّ مُستَنبِح يطلب نباح الكلب ليهتدي الضيف إلى مكان صاحبه، ولفظ "مُسْتَنبِحٌ" يجوز حمله على معنى أن الضيف يصوّت بصوته صوتًا يشبه نبح الكلب؛ لكي يسمع الكلب صوته فيرد الكلب عليه بنبحه، فيستدل الضيف على مكان صاحب الكلب، وقد مرَّ تفسير ذلك في المقطوعة السابقة، ولكن الردَّ على المُسْتَنْبِح هناك كان من مجموعة من الكلاب، أما الردّ على المُسْتَنْبِح هنا فهو من كلب واحد، والمعنى الثاني للفظ "مُسْتَنبِح" يدل عليه البيت الأول في قوله:

وَمُستَنبِحٌ نَبَّهتُ كَلبي لِصَوتِهِ ∴ وَقُلتُ لَهُ قُم في اليَفاعِ فَجاوِبِ

وفي رواية:

وَمُستَنبِحٌ نَبَّهتُ كَلبي لِصَوتِهِ ∴ فقلتُ له: قم باليَفَاع فَجَاوِبِ[4]

---

(١) اليَفَاعُ: مَا ارْتَفَعَ مِنَ الأَرْضِ، مختار الصحاح للرازي، ت: يوسف الشيخ محمد (يفع)، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط الخامسة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٢) الضَّوَى: الهُزَالُ، لسان العرب (ضوي)، الطَّوَى: الجُوعُ، السابق (طوى)، مسنون: طويل، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، ت: مجموعة من المحققين (سنن)، دار الهداية من دون تاريخ، والغِرَارَانِ: شَفْرَتَا السَّيْفِ، السابق (غرر)، قاضب: قاطع، تهذيب اللغة للأزهري (قضب).

(٣) ديوان إبراهيم بن هَرْمَة ٦٤، نائب: كثيرٌ عوّادٌ، وهو ينتابنا، وهو منتاب: مغادٍ مراوح، أساس البلاغة للزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود (نوب)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

(٤) البخلاء للجاحظ ٣٠٦، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط الثانية ١٤١٩هـ.

والفرق بين الروايتين أن الرواية الأولى في قوله: (وَقُلتُ لَهُ قُم...) جاءت بالواو التي تدل على الترتيب والتمهل بدون سرعة، أما الرواية الثانية في قوله: (فقلتُ لَهُ قُم...) فجاءت بالفاء التي تفيد الترتيب والسرعة، فكأن الشاعر نبَّه الكلب أن يجاوب الضيف بمجرد نباحه؛ لكي يستدل الضيف على مكانه بسرعة، ويدل البيت الثاني على ذلك حيث قال:

فَجاءَ خَفيَّ الصَوتِ قَد مَسَّهُ الضَوى ∴ بِضَربَةِ مَسنونِ الغَرارَينِ قاضِبِ

وفي رواية:

فجاءَ خفيَّ الشخص قد رَامَه الطَّوَى ∴ بِضَربة مَسنون الغَرارَين قاضبِ[1]

فقد عبر عن سرعة مجيء الضيف بالفاء في قوله: (فَجاءَ خَفيَّ الصَوتِ...)، وقال في الرواية الأولى: (خَفيَّ الصَوتِ قَد مَسَّهُ الضَوى)، حيث كنى عن الضيف بقوله: (خَفيَّ الصَوتِ)؛ لأن صوت الضيف لا يكاد يكون مسموعًا من شدة حيائه، وربما أرغم ناقته على الرُغَاء ليُسْمِعَ بصوتها أهل المكان الذي نزل به، و(كَفَى بِرُغَائِهَا مُنَاديًا)[2]؛ ولذلك عبر بقوله: (قَد مَسَّهُ الضَوى)، أي: مسه الهزال؛ لأن حاله تنادي بما هو فيه، أما الرواية الثانية فقد كنى عن الضيف بقوله: (خفيَّ الشخص)؛ لأن الضيف يسير على غير اهتداء في طريقه، وحاله تخفى على كثير من الناس، وعبر بقوله: (قد رَامَه الطَّوَى)، أي: الجوع؛ لأن حرارة الجوع تكاد تُخفي شخصيته عن

---

(١) السابق الصفحة نفسها، رامَهُ، أَي: بَرِحَهُ. لسان العرب (روم).

(٢) هذا مَثَلٌ مشهور عند العرب يضرب في قَضَاء الحاجة قبل سؤلها، ويضرب ـ أيضًا ـ للرجل تحتاج إلى نُصرتَه أوْ مَعُوْنَتَهُ فلا يحضرك، ويعتلُّ بأنه لم يعلم، ويضرب لمن يقف بباب الرجل فيقَال: أرْسِلْ مَنْ يستأذن لك ويقول: كفى بعلمه بوقوفي ببابه مستأذنًا لي، أي: قد علِم بمكاني فلو أراد أذِنَ لي. مجمع الأمثال للنيسابوري، ت: محمد محيى الدين عبد الحميد ٢/ ١٤٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان من دون تاريخ.

الناس، فهو من الذين تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا، وهو في كلتا الروايتين لمَّا ذاق لباس الجوع والخوف كأنه ضُرِبَ بمَسنون الغَرارَين قاضبٍ، أي: ضرب بشفرتي السيف القاطع من شدة الضوى أو الطوى، فكأن حالته تستدعي سرعة انقاذه مما هو فيه، فجاء الجواب بالفاء التي تفيد سرعة الترحيب والاستبشار في قوله:

فَرَحَّبتُ واستَبشَرتُ حَتّى بَسَطتُهُ ∴ وَتِلكَ الَّتي أَلقى بِها كُلَّ آئِبِ

وفي رواية:

فَرَحبّتُ واستبشرتُ حين رأيتُه ∴ وتلكَ التي أَلقَى بهَا كلَّ نائبِ[1]

والترحيب والاستبشار في قوله: (فَرَحَّبتُ واستَبشَرتُ حَتّى بَسَطتُهُ) كناية عن حسن الضيافة، وكون الترحيب والاستبشار في الرواية الأولى يصل إلى حالة انبساط الضيف، فتلك مبالغة في الكناية عن الكرم، وكون الترحيب والاستبشار في الرواية الثانية يكون عند رؤية الضيف في قوله: (فَرَحبّتُ واستبشرتُ حين رأيتُه) فتلك أولى علامات الكناية عن الكرم، وعلى ذلك فالرواية الأولى أبلغ في الكرم، وكلتا الروايتين تدلان على الحالة التي يلقى بها صاحب الكلب كل نائب، أي: كل غاد ورائح.

(١) البخلاء للجاحظ، ٣٠٦.

زَجْرُ الكلاب للضيف عند شَبِيب بن البَرْصَاء:

قال شَبِيبُ بن البَرْصَاء:

ومُسْتَنْبِحٍ يدعو وقد حَالَ دُونَهُ ∴ من الليل سِجْفَا ظُلْمَةٍ وسُتُورُها

رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فلما اهتَدَى لها ∴ زَجَرْتُ كِلَابي أن يَهِرَّ عَقُورُها [1]

في هذين البيتين يقول شَبِيبُ بن البَرْصَاء: "ومستَنْبِح" ـ وقد مرَّ توجيه المعنيين لها ـ وهو هنا يقصد المعنى الثاني وهو: (الرجل الذي يستنبح الكلاب، فينبح نباحها، فإذا فعل ذلك نبحته الكلاب، فيعلم بذلك: أين الحي؟ فيقصدهم)[2]، أي: وربَّ مستَنْبِحٍ، وجواب "ربَّ" قوله: (رفعتُ له ناري...)، ويدل ـ أيضًا ـ على أنه أراد ذلك المعنى قوله: (ومستنبِحٍ يدعو وقد حال دونه ∴ من الليل سِجْفَا...)، فقد صرح الشاعر أن المستَنْبِح يدعو، أي: يصوت صوتًا كنبح الكلب لتنبحه الكلاب

---

(١) سجْفَا: السجْف: الستر. لسان العرب (سجف)، وهذان البيتان من قصيدة لشَبِيب بن البَرْصَاء لما ذهب لخطبة بنت يزيد بن هاشم بن حرملة المري ثم الصرمي فرفض يزيد، وبين له أنها صغيرة فقال شبيب: لا ولكنك تبغي أن تردني، فقال له يزيد: ما أردت ذاك، ولكن أنظرني هذا العام، فإذا انصرم فعلي أن أزوجك، فرحل شبيب من عنده مغضبًا، فلما مضى قال ليزيد بعض أهله: والله ما أفلحت، خطب إليك شبيب سيد قومك فرددته، قال: هي صغيرة، قال: إن كانت صغيرة فستكبر عنده، فبعث إليه يزيد ارجع فقد زوجتك فإني أكره أن ترجع إلى أهلك وقد رددتك، فأبى شبيب أن يرجع، وقال هذه القصيدة التي مطلعها:

لعَمْري لقد أشرفتُ يوم عُنَيزةٍ ∴ على رغبةٍ لو شدّ نفسي مَرِيرها

ولكنّ ضعفَ الأمر ألاّ تُمِرَّه ∴ ولا خير في ذي مِرّةٍ لا يُغيرُها

ينظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ت/ سمير رجب ١٢ / ٣٢٠، ٣٢١، دار الفكر بيروت، ط الثانية من دون تاريخ.

(٢) الاختيارين للأخفش الأصغر، ت: فخر الدين قباوة، ٥٤٢، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط الأولى١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

فيَستدل بنبحهم على أصحابهم، وقد استعار السجف لتراكم الظلمة، وقد روي هذا البيت برواية أخرى منسوبة لعوف بن الأحوص:

ومُسْتَنْبِحٍ يَخْشَى القَوَاءَ ودُونَهُ ∴ مِنَ اللَّيْلِ بَابَا ظُلْمَةٍ وسُتُورُها(١)

وروي برواية أخرى منسوبة لأخيه شريح بن الأحوص:

ومُسْتَنْبِحٍ يَبْغِي المبيت ودونه ∴ من اللَّيْل سجْفَا ظلمَة وكُسُورها(٢)

والروايات الثلاث تتفق على استنباح الضيف في وقت من الليل المظلم، وتختلف في أن شَبِيْبَ بن البَرْصَاء آثر التعبير بالفعل المضارع "يدعو"؛ ليصور استحضار حركة الضيف وهو مستنبح، وحال دونه الليل المظلم في قوله:

ومُسْتَنْبِحٍ يدعو وقد حال دونَهُ ∴ مِنَ الليل سِجْفَا ظُلمةٍ وسُتورُها

أما عوف بن الأحوص فقد آثر التعبير بالفعل المضارع "يخشى"؛ ليصور استحضار خوف الضيف وهو مستنبح في صحراء، وحال دونه باب من الليل المظلم في قوله:

ومُسْتَنْبِحٍ يَخْشَى القَوَاءَ ودُونَهُ ∴ مِنَ اللَّيْلِ بَابَا ظُلْمَةٍ وسُتُورُها

وأما شريح بن الأحوص فقد آثر التعبير بالفعل المضارع "يبغي"؛ ليصور استحضار الضيف وهو مستنبح يطلب المبيت، وحال دونه ظلام الليل، وجانب البيت أو ناحيتي الصحراء في قوله:

---

(١) الحيوان للجاحظ ٥/ ٧٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الثانية ١٤٢٤هـ، والقواء: الفلاة أو الأرض القفر الخالية، لسان العرب (قوى).

(٢) شرح ديوان الحماسة للأصفهاني، ت: غريد الشيخ ١١٩٥، والكسور جمع الكِسْرُ وهو: جَانِبُ البَيْتِ...، والكَسْرُ والكِسْرُ: الشُّقَّة السُّفْلى مِنَ الخِبَاءِ...، وكِسْرا كُلِّ شَيْءٍ: نَاحِيَتَاهُ حَتَّى يُقَالَ لِنَاحِيَتَيِ الصَّحراءِ: كِسْرَاها، تاج العروس (كسر).

ومُسْتَنْبِحٍ يَبْغِي المبيتَ ودونَهُ ∴ مِنَ الليل سجْفًا ظُلْمَةٍ وكُسُورها

وأما قول شَبِيْب بن البَرْصَاء:

رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فلما اهتدَى لها ∴ زَجَرْتُ كِلَابي أن يَهِرَّ عَقُورُها [١]

وفي رواية:

رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فلما اهتدَى بها ∴ زَجَرْتُ كِلَابي أن يَهِرَّ عَقُورُها [٢]

فترى أنَّ الرواية الأولى: (فلما اهتدَى لها) جعلت الضيف يهتدي إلى المكان الذي رَفَع له النار، والرواية الثانية: (فلما اهتدَى بها) جعلت الضيف يهتدي بالنار، أي: بسببها إلى المكان الذي رَفَع له النار، وهي الرواية الأقوى والأشهر.

ويلحظ أن الشاعر هو الذي رفع النار بنفسه للضيف، ولم يُكَلِّف أحدًا ـ مثلًا ـ غيره برفع النار لكي يهتدي إلى مكانه؛ وذلك للدلالة على المبالغة في كرمه عند استقباله الضيف، ثم أتي قوله: (زَجَرْتُ كِلَابي أن يَهِرَّ عَقُورُها)، وهي الجملة الأم، أو المعنى الأم في القصيدة[٣]؛ ليؤكد على المبالغة في الكناية عن كرمه بزجر كلابه، فقد أتى بالدليل على دعواه، والبرهان على معناه؛ لأن زجرهم يؤدي إلى جبنهم،

---

(١) الأغاني ١٢/ ٣٢١.

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت الشيخ/ محمود شاكر ٣٠٨.

(٣) الجملة الأم في البيان هي الصورة اللفظية للمعنى الأم، وصاحب هذا المنهج شيخ البلاغيين د. محمد أبو موسى، ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول د. محمد أبو موسى ٤٠٥، ٤٠٨، ٤١٧، ٣٥٤، مكتبة وهبة، القاهرة، ط الثانية ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، وينظر: آل حم غافر، فصلت دراسة في أسرار البيان د. محمد أبو موسى ١٤، مكتبة وهبة، القاهرة، ط الثانية ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ويمكن أن يقال: إن هذا البيت هو المعنى الأم للقصيدة، وما قبله يُعَدُّ تمهيدًا له.

وجبنهم لا يكون إلا بعد استمرار زجرهم، وذلك يستلزم استمرار تردد الضيف على هذا المكان ذهابًا وإيابًا، ومن ثَمَّ يستلزم ذلك الكناية عن كرم صاحب الكلاب[1]، وهذه صورة من الكناية الخفية التي تتعدد فيها الوسائط، وهذه صنعة في طريق إثبات صفة الكرم، وقد سَمَّاها الإمام عبد القاهر بـ(الصنعة في طريق الإثبات)[2]، (والمقصود بالصنعة إثبات الصفة بطريقةٍ فيها تغطية)[3]، وهذه الصنعة تعكس الموقف الذي تعرَّضَ له شَبِيبُ بن البَرْصَاء عندما ذهب لخطبة بنت يزيد بن هاشم فرفض يزيد، ورَدَّهُ لصِغَرِ سنها، فكأن هذه الصنعة في طريق الإثبات فيها ـ أيضًا ـ

---

(١) وعدم زجر الكلب في وجه الضيف يستلزم الكناية عن بخل صاحبه؛ ولذلك قال حاتم الطائي:

إذا ما بَخيلُ الناسِ هَرَّت كِلابُهُ ∴ وَشَقَّ عَلى الضَيفِ الضَعيفِ عَقورُها

فَإِنّي جَبانُ الكَلبِ بَيتي مُوَطِّأً ∴ أَجودُ إِذا ما النَفسُ شَحَّ ضَميرُها

وَإِنَّ كِلابي قَد أُهِرَّت وَعُوِّدَت ∴ قَليلٌ عَلى مَن يَعتَريني هَريرُها

الأبيات في ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره ليحيى بن مدرك الطائي، وهشام بن محمد الكلبي، ت: د. عادل سليمان جمال ٢٣١ . مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط الثانية ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م،

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: الشيخ محمود شاكر، ٣٠٧.

(٣) حاصل هذا أن الصنعة في الكناية عن النسبة كالصنعة في الكناية عن الصفة التي تتعدد فيها الوسائط، والمقصود بالصنعة إثبات الصفة بطريقة فيه تغطية، وأنه كما راقك "جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيلِ"؛ لأنه كنى عن المعنى المقصود ولم يأت عاريًا غفلًا، فكذلك راقك بيت زياد الأعجم في الكناية عن نسبة في قوله:

(إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ والنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابن الحَشْرَجِ)؛ لأنه كنى عن إثبات ما أثبت من الصفات، ولم يثبتها بشكل صريح مألوف. ينظر: شرح دلائل الإعجاز، د. محمد إبراهيم شادي، ٣٩٦، ٣٩٧، دار اليقين، مصر، ط الثانية ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

تعريضٌ[١] ببخل يزيد بن هاشم؛ لأنه لم يقتصر على كونه رفض شَبِيبَ بن البَرْصَاء ولم يزوجه ابنته، وكذلك ـ أيضًا ـ لكون يزيد لم يستقبله ضيفًا عنده كما يستقبل شَبِيبُ بن البَرْصَاء الضيفَ عنده.

الصَّنْعة في طريق الإثبات، ورباط التناسب بين زَجْر الكلب وجُبْنِه:

لقد بين الإمام عبد القاهر أن الصَّنْعة في طريق الإثبات، هي نظير الصَّنْعة في المعاني إذا جاءت كنايات عن معانٍ أُخَر نحو قوله:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي ∴ جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيلِ[٢]

وهذه الكناية التي يقصد بها الإمام عبد القاهر نفس الصفة، والتي عرفت عند المتأخرين بالكناية عن صفة، وقاسها على الكناية التي يقصد بها إثبات الصفة، والتي عرفت عند المتأخرين بالكناية عن نسبة، وأن الوسائط تتعدد في هذين النوعين من الكناية، وأنك تنظر في الكناية عن صفة إلى قوله: "جَبَانُ الكَلْبِ" فتعلم أنه نظير لقوله: "زَجَرْتُ كِلَابي أن يَهِرَّ عَقُورُها"، من حيث لم يكن ذلك "الجبن" إلا لأَنْ دام منه

(١) التعريض: إمالة الكلام إلى عرض يدل على المقصود، تقول: "عرَّضت لفلان وبه" إذا قلت قولًا لغيره وأنت تعنيه. بغية الإيضاح للشيخ، عبد المتعال الصعيدي ٣/ ١٦٢، مكتبة الآداب، ط السابعة عشر ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢) الفَصِيل: وَلَدُ النَّاقَةِ إِذَا فُصِلَ عَنْ أُمِّهِ، وَالجَمْعُ فُصْلَانٌ وَفِصَالٌ. مختار الصحاح (فصل)، وفي هذا البيت اجتمع كنايتانِ عن صفة الكرم، المغزى منهما شيء واحد، ثم لا تكون إحداهما في حُكْم النظير للأخرى، فلا يكون قوله: "جَبَانُ الكَلْبِ" نظيرًا لقوله: "مَهْزولُ الفَصِيلِ"، بل كل واحد من هاتين الكنايتين أصلٌ بنفسه، وجنس على حدة. والبيت غير منسوب، وهو بيت عائر لا ثاني له. ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: الشيخ محمود شاكر، ٣٠٧، ٣١٢، وسيأتي تفصيل الكنايتين فيه.

الزَّجْرُ واستمرَّ، حتى أخرج الكلبَ عما هو عادته من الهَرِير والنَّبْح في وجه من يدنو من دارٍ هو مُرْصَدٌ لأَن يَعُسَّ دونها... [١]، وأن بينهما قرابةً شديدةً ونسبًا لاصقًا [٢].

وعلى ذلك فرباطُ التناسب الذي أشار إليه الإمام عبد القاهر بين استمرار زجر الكلب الذي يؤدي إلى جبنه، وأنه لم يكن جبنه إلا بعد استمرار زجره جعل قوله: "جَبَانُ الكَلْبِ"، نظير قوله: "زَجَرْتُ كِلَابي" في الدلالة على الكرم.

ثم جاء السياق اللاحق لقول شَبِيْب بن البَرْصَاء يؤكد على الدلالة على كرمه في قوله:

فبات وقد أسرَى من الليل عُقْبَةً ∴ بليلةِ صِدْقٍ غاب عنها شُرُورُها

أي: بعْدَ أن رفعَ الشاعرُ للضيف النار ليهتدي إلى مكانه، وزجر كلابه، وأكرم ضيافته، يبيت الضيف عنده ليلة صدق، أي: نِعْمَ الليلة هِي لا يشوبها نحس ولا شر، ويَسْلَمُ فيها الضيف من كل شر، وتصحبه السلامة والراحة طوال مُكْثِهِ عنده.

ويروى السياق اللاحق برواية أخرى هي:

فَلا تَسألِيني واِسألي عَن خَليقَتي ∴ إذا رَدَّ عافي القِدرِ مَن يَستَعيرُها[٣]

تَرِي أَنَّ قِدري لا تَزالُ كَأَنَّها ∴ لِذي الفَروَةِ المَقرورِ أُمٌّ يَزورُها[٤]

---

(١) المقصود بذلك: الضيف الذي يأتي في العسس والظلمة يرصد ويقصد ديار الكرماء ويدنو منها. شرح دلائل الإعجاز، د. محمد إبراهيم شادي، ٣٩٨.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: الشيخ محمود شاكر، ٣٠٨، ٣٠٩.

(٣) العَافِي: مَا يُرَدُّ فِي القِدْرِ مِنَ المَرَقَةِ إِذَا اسْتُعِيرَتْ...، وقيل: مَعْنَاهُ، أي: "معنى البيت": أَنَّ صاحبَ القِدرِ إِذَا نَزَلَ بِهِ الضَّيْفُ نَصَبَ لَهُمْ قِدْرًا، فَإِذَا جاءهُ مَنْ يَسْتَعِيرُ قِدْرهُ فَرَآهَا منصوبَةً لهُم رجَعَ وَلَمْ يَطْلُبْها، والعَافِي: هُوَ الضَّيْفُ، كأَنه يرُدُّ المُسْتَعِير لارْتِدادِه دونَ قضاءِ حاجَته؛ ينظر: لسان العرب (عفو).

(٤) ذُو الفَرْوَةِ: السَّائِلُ، وفَرْوَته: شِبْه الخَرِيطَةِ من الجِلْدِ يَجْعَلُ السَّائِلُ فِيهَا صَدَقَتَهُ؛ ينظر: تاج العروس (فرو)، والمَقْرور: الذي اشتد به البرد، ينظر لسان العرب (قرر).

مُبرَّزَةٌ لا يُجعَلُ السِترُ دُونَها ∴ إذا أُخمِدَ النيرانُ لاحَ بَشيرُها [١]

إذا الشَولُ راحَت ثم لَم تَفدِ لَحمَها ∴ بأَلبانِها ذاقَ السِنانَ عَقيرُها[٢]

حيث إنَّ الشاعر يفخر بشدة كرمه وجوده بما عنده، فقِدْره مَنْ عفاها، أي: مَنْ جَاءَها من الضيوف للقرى يُشغلها عمن يستعيرها، وهذه طبيعته في زمن الجدب، وما يحدث في تلك الظروف الصعبة في الوقت الذي يبخل فيه غيره ببقية المرق التي في القِدر، فقد أسند الفعل "رَدَّ" إلى سببه وهو "عافي القِدرِ" على سبيل المجاز العقلي[٣]، لعلاقة السببية، وحقيقته: "إذا ردَّ صاحب القِدر مَنْ يستعيرها بسبب عافيها، وهذا كناية عن شدة الجدب؛ لأنه يمنع إعارة قدره لتلك البقية.

ولعل هذا السياق هو المناسب لمناسبة القصيدة، حيث إنَّ الشاعرَ كان يريد أن يخطب بنت يزيد بن هاشم فردَّهُ يزيد وأساء مكافأته، فكأنَّ الشاعر عَرَّضَ له بقوله: (إذا رَدَّ عافي القِدرِ مَن يَستَعيرُها)، وكأنه قال له: (عَافِيكُمْ في القِدْرِ ماءٌ أَكْدَرُ)[٤]، أما قِدْرُ الشاعر فهي لا تزال كأنها للسائل الذي اشتد به البرد أمٌّ يزورها، وضوء ناره بارزة يستبشر بها الناظر إليها، ويستدل بها على خيره العميم، ثم بين في البيت الأخير أنه إذا رجعت إبله من رعيها ذبحها لجيرانه وضيوفه؛ لأنها لما ارتفع لبنها ونقص زاد لحمها فذبحها؛ لكثرة لحمها، وفي ذلك كناية عن الكرم.

---

(١) بَشيرُها: ضوؤها؛ ينظر: تاج العروس (بشر).

(٢) الشَّوْلُ: الشَّوْلُ مِنَ الإبل الَّتِي نقَصتْ أَلبانها. لسان العرب (شول)، ورَاحَتْ: رَجَعَتْ؛ مختار الصحاح (روح).

(٣) المجاز العقلي: هو الكلام المُفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه؛ لضرب من التأول، إفادةً للخلاف، لا بواسطة وضع؛ بغية الإيضاح ١/ ٤٦.

(٤) يُضْرَبُ لمن أحسن إليه فأساء المكافأةَ؛ مجمع الأمثال للنيسابوري ٢/ ٤١، وماءٌ أَكْدَرُ، أي: في لونه كُدْرة، والكَدَرُ: نَقِيضُ الصَّفَاءِ؛ ينظر: لسان العرب (كدر).

موازنة بين نَبْحِ الكلبِ للضيف عند ابن هَرْمَة، وزَجْر الكلاب للضيف عند شَبِيب بن البَرْصَاء:

لقد تفاوتت دلالة الكناية عن الكرم باستخدام الكلب بين ابن هَرْمَة وشَبِيب بن البَرْصَاء، فابن هَرْمَة جعل من أَوَّل مراحل الدلالة على كرمه النبح الخفي للكلب في قوله:

وَسَلِ الجارَ وَالمُعَصِّبَ وَالأضـ ∴ يافَ وَهنًا إذا تَحَيّوا لَدَيّا

كَيفَ يَلقَونَني إذا نَبَحَ الكَلـ ∴ ـبُ وَراءَ الكُسُورِ نَبحًا خَفيّا

وهنا يلحظ أن ابن هَرْمَة جعل تعلق نبح الكلب للضيف، ومن ثَمَّ تعلقه بالكرم كتعلق السؤال بالإجابة المشتملة على الشرط المُشَوِّق للجواب في قوله:

وَسَلِ الجارَ وَالمُعَصِّبَ وَالأضـ ∴ يافَ وَهنًا إذا تَحَيّوا لَدَيّا

كَيفَ يَلقَونَني إذا نَبَحَ الكَلبُ...

ويلحظ ـ أيضًا ـ أنه لم يأت بالكناية القريبة، وإنما أتى بالكناية البعيدة(١) للدلالة على كرمه، فالنبح الخفي للكلب من شدة البرد "وَرَاءَ الكُسُورِ"، أي: الناقة المذبوحة هنا كان خلف الناقة المذبوحة، أو أمام ذبح الناقة للضيوف، وتلك حالة للكلب تدل على فرحه وتشوقه للأكل من هذه الناقة، وذلك يستلزم أكل الضيف منها ـ أيضًا ـ وهذا يستلزم الكناية عن كرمه، ووفرة جوده.

---

(١) الكناية عن صفة تارة تكون قريبة، وتارة تكون بعيدة، الكناية القريبة: وهي أن تنتقل على مطلوبك من أقرب لوازمه إليه مثل أن تقول: فلان طويل النجاد متوصلًا به على طول قامته...، وأما البعيدة: فهي أن تنتقل على مطلوبك من لازم بعيد بوساطة لوازم متسلسلة مثل قول نُصَيْب: (وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ...). ينظر مفتاح العلوم للسكاكي، ت: نعيم زرزور ٤٠٤، ٤٠٥ ، ٤٠٦، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ويلحظ ـ أيضًا ـ أن نبح الكلب هنا إلى جانب أنه خفي أن وقت نبحه كان بعد ذبح الناقة وكسر عظامها، وهذا يدل على أن الكلب لم ينبح وقت قدوم الضيف؛ لأنه يأنس بهم وكأنهم أصحاب المكان، وهذا فيه مزيد في الدلالة على الكرم والجود وكثرة الزائرين، وهذا يدل بطريق غير مباشر على أن نبح الكلب لم يكن لأجل الزائرين، وإنما كان لأمر آخر يتعلق بالكلب نفسه، وهو فرحُهُ بكثرة الطعام، وكل هذا يعلي من شأن البيت عند ابن هَرْمَة، وأنه أفضل وأكرم مما ورد عند غيره في هذا المعنى.

وأما قوله:

وَإذا تَنَوَّرَ طارِقٌ مُستَنبِحٌ ∴ نَبَحَتْ فَدَلَّتهُ عَليَّ كِلابي

وَعَويْنَ يَستَعجِلْنَهُ فَلَقِيْنَهُ ∴ يَضْرِبْنَهُ بِشَراشِرِ الأَذنابِ

فلم يقتصر على النبح فقط للدلالة على كرمه، وإنما جعل نبح الكلاب دليلًا للضيف على مكانه، وجعل تعلق نبح الكلاب للضيف، ومن ثَمَّ تعلق الشاعر بالكرم كتعلق الشرط بالجواب في قوله: وَإذا تَنَوَّرَ طارِقٌ... نَبَحَتْ فَدَلَّتهُ عَليَّ كِلابي)، وقد ربط ذلك بالفاء التي تفيد السرعة في معرفة مكانه في قوله: (نَبَحَتْ فَدَلَّتهُ عَليَّ كِلابي)، ثم جعل ذلك النبح دليل فرح للكلاب يتبعه الحركة المعبرة عن أنس الكلاب بالضيف، وسيأتي تفصيل هذه الحركة في مرحلة أُنْس الكلب بالضيف.

وأما قوله:

وَمُستَنبِحٌ نَبَّهتُ كَلبي لِصَوتِهِ ∴ وَقُلتُ لَهُ قُم في اليَفاعِ فَجاوِبِ

وفي رواية:

وَمُستَنبِحٌ نَبَّهتُ كَلبي لِصَوتِهِ ∴ فقلتُ له: قم باليَفَاع فَجَاوبِ[1]

(١) البخلاء للجاحظ، ص، ٣٠٦.

فقد جاء تنبيهه للكلب بمجاوبة الضيف بالنبح لكي يستدل على مكانه، وهذه تعد أول مراحل الدلالة على الكرم باستخدام نبح الكلب للضيف عند ابن هَرْمَة، وقد جاء تنبيهه مرة بـ "الواو" في قوله: (وَقُلتُ لَهُ...)، وهي تدل على التمهل في مجاوبة الضيف بالنبح، ومرة بـ "الفاء" في قوله: "فقلتُ له..."، وهي تدل على السرعة في مجاوبة الضيف بالنبح؛ لكي يستدل الضيف على مكانه بسرعة، وهي أبلغ في الدلالة على الكرم.

وأما قول شَبِيبُ بن البَرْصَاء:

ومُسْتَنْبِحٍ يدعو وقد حَالَ دُونَهُ ∴ من الليل سِجْفَا ظُلْمَةٍ وسُتُورُها

رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فلما اهتَدَى لها ∴ زَجَرْتُ كِلَابي أن يَهِرَّ عَقُورُها

فلم يقتصر على النبح فقط الذي استخدمه ابن هَرْمَة، وإنما زاد شَبِيبُ بن البَرْصَاء برفعه النار بنفسه لاستقبال الضيف في قوله: (رَفَعْتُ لَهُ نَارِي...)، ثم جاء زجر كلابه في قوله: (زَجَرْتُ كِلَابي أن يَهِرَّ عَقُورُها)؛ ليؤكد بهذه الجملة الأم أو المعنى الأم على المبالغة في كرمه بالكناية الخفية التي تتعدد فيها الوسائط، وهذه صنعة في طريق إثبات صفة الكرم، وقد سماها الإمام عبد القاهر بـ (الصنعة في طريق الإثبات)[1]، (والمقصود بالصنعة إثبات الصفة بطريقة فيها تغطية)[2] ، لأن زجر كلابه يؤدي إلى جبنهم، وجبنهم لا يكون إلا بعد استمرار زجرهم، وذلك يستلزم استمرار تردد الضيف على هذا المكان ذهابًا وإيابًا، ومن ثَمَّ يستلزم ذلك الكناية عن كرم صاحب الكلاب، وعلى ذلك فقد تَفَوَّقَ شَبِيبُ بن البَرْصَاء على ابن هَرْمَة بهذه الجملة الأم أو المعنى الأم، وإن شئت فقل بهذا البيت الذي يشتمل على الجملة الأم

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: الشيخ محمود شاكر، ص، ٣٠٧.

(٢) شرح دلائل الإعجاز، د. محمد إبراهيم شادي، ص ص، ٣٩٦، ٣٩٧.

أو المعنى الأم في الدلالة على الكرم؛ لأنه جمع بين رفعه النار بنفسه ليستدل الضيف على مكانه، وبين زجره لكلابه لاستقبال ضيفه، وهذه صنعة في طريق إثبات صفة الكرم، وعلى ذلك فشَبِيبُ بن البَرْصَاء هنا له القدح المُعَلَّى في الكرم.

وتأمل في نهاية هذا المبحث ألا يدل زَجْر الكلب عن النبح أن الكلب بمجرد رؤية الضيف كان منه نَبْح لعدم إلفه لهذا الأمر، وأنه لو كان يألف مجيء الضيف لما حدث منه نَبْح، ولما كان هناك زَجْر؟ وهذا يقلل من الدلالة على الكرم عند الممدوح؟ وعلى ذلك فتعد مرحلة نَبْح الكلب للضيف وزَجْرِه هي أقل مراحل الدلالة على الكرم.

المبحث الثاني

بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بأُنْس الكلب بالضيف

أُنْس الكلب بالضيف عند نُصَيْب:

قال نُصَيْب بن رَباح في مدح عبد العزيز بن مروان:

لِعَبْدِ العَزِيزِ عَلَى قَوْمِهِ ∴ وَغَيرِهِم نِعم ظَاهِرَهْ

فَبَابُكَ أَلْيَنُ أبْوَابِهِمْ ∴ وَدَارُكَ مَأْهُولَةٌ عَامِرَهْ

وَكَلْبُكَ أرأفُ بِالزَّائِرِينَ ∴ مِن الأمِّ بِابنَتِها الزَّائِرَهْ

وَكفك حينَ تَرى السائِلِينَ ∴ أندى من اللَيلَةِ الماطِرهْ

فَمِنكَ العَطاءُ وَمنا الثَّناء ∴ بِكُل مُحَبَّرَة سائِرَهْ (١)

لقد تفاوتت دلالة الكناية عن الكرم باستخدام الكلب فقد عُرِفَ من طباع الكلب نَبْحه ومطاردته للغرباء عند رؤيتهم، فإذا زُجِرَ الكلب، وكُفَّ عن النبح، وجَبُنَ أمام الغرباء كانت هذه هي المرحلة الأولى في الدلالة على كرم صاحب الكلب بين ابن هَرْمَة وشَبِيب بن البَرْصَاء في نَبْح الكلب للضيف وزَجْرِه ، وهي التي سبقت في المبحث الأول، أما هنا عند نُصَيب فقد تفاوتت دلالة الكناية عن صفة الكرم "البعيدة"؛ لكثرة تعدد الوسائط في صورة استئناس الكلب بالضيوف، فأُنْس الكلب بالضيوف عند نُصَيب دل على معرفته بهم من حيث كثرة تردد الضيوف على دار الممدوح "عبد العزيز بن مروان" لقضاء حوائجهم بعدة وسائط، حيث (دل بمعنى أنسه ذلك بالزائرين على أنهم عنده معارف فالكلب لا يأنس إلا بمن يعرف، ودل بمعنى كونهم معارف عنده على اتصال مشاهدته إياهم ليلًا ونهارًا، ودل بمعنى ذلك على

---

(١) شِعْرُ نُصَيْب بن رباح، ٩٩.

لزومهم سدة عبد العزيز، ودل بمعنى لزومهم سدته على تسني مباغيهم هنالك تسنيًا بالاتصال لا ينقطع، ثم دل بمعنى ذلك على ما أراد، فانظر كيف لوح مع بعد المسافة بين أُنس الكلب بالزائرين، وبين إحسان عبد العزيز الوافر)[١]، وقد مَهَّد لهذه الكناية بعدة أدلة وكنايات منها:

أولًا ـ لام الاختصاص في قوله: (لِعَبد العَزيز عَلى قَومِهِ)، فلم يقل مثلًا: "عبد العزيز له على قومه"؛ لاختصاص الممدوح بالكرم دون غيره، ولم يقتصر على قومه فقط، وإنما قال: (وَغَيرِهِم نِعَمٌ ظاهِره)، وفي رواية: (وغيرهم منن غامره)[٢]، وفي رواية: (وَغَيْرِهِمُ مِنَنٌ ظَاهِرَهْ)[٣]، وهي أكرم في المدح؛ لأن المِنَنُ: جمع مِنَّة، (والمِنَّةُ: النِّعْمَة الثَقِيلَة... يقال: مَنَّ فُلانٌ عَلى فُلانٍ إذا أَثْقَلَهُ بالنِّعْمَة...، والنِّعْمة للجِنسِ تُقَالُ للقَليلِ والكَثير)[٤]، فنِعَمُ ومِنَنُ الممدوح كثيرة تغمر قوم الممدوح وغيرهم، وذلك ظاهر واضح للقاصي والداني.

ثانيًا ـ أنه أتى بالدليل الأول على ذلك فقال: (فَبَابُكَ أَلْيَنُ أبْوَابِهِمْ)، وفي رواية: (فَبَابُكَ أَسْهَلُ أبْوَابِهِمْ)[٥]، وسهولة باب الممدوح يلزم منها أن تكون ملاذًا لكثرة القاصدين، ومن ثَمَّ فهي كناية عن الكرم.

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي، ص ٤٠٦.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٤٠٠، دار الحديث، القاهرة، ط ١٤٢٣هـ، وغامرة: كثيرة تغمر الناس، أي: تعلوهم وتغطيهم. ينظر تاج العروس للزبيدي (غمر).

(٣) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: الشيخ محمود شاكر، ٣٠٩.

(٤) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ت: وائل أحمد عبد الرحمن ٤٧٧، ٥٠١، المكتبة التوفيقية، ط الثالثة ٢٠١٣م.

(٥) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: الشيخ محمود شاكر، ص ٣٠٩، و(السَّهْلُ: ضدّ الحَزْنِ، وجمعه سُهُولٌ...، وأَسْهَلَ: حصل في السَّهْلِ...، واللِّينُ: ضدّ الخشونة)، المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص ص ٢٥١، ٤٦١.

ثالثًا: أنه أتى بالدليل الثاني على ذلك فقال: (وَدَارُكَ مَأْهُولَةٌ عَامِرَهْ)، وعمارة دار الممدوح يلزم منها أن تكون مقصدًا لكثرة المترددين، ومن ثَمَّ فهي كناية عن الكرم ـ أيضًا ـ، وفي قوله: "مَأْهُولَةٌ" (إيحاء بكثرة الكرم وحسن الضيافة؛ لدلالتها على أن من يحل بالدار يصير أهلًا لها فلا يشعر بغربة ولا جفوة)[1]، وقوله: (عَامِرَهْ) تأكيد لذلك.

ويلحظ أن قوله:

وَكَلْبُكَ أَرْأَفُ بِالزَّائِرِينَ ∴ مِن الأمِّ بِابنَتِها الزَّائِرَهْ

وفي رواية: وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ ∴ مِن الأمِّ بِالابْنَةِ الزَّائِرَهْ[2]

وفي رواية: وَكَلْبُكَ آنَسُ بالمُعْتَفِينَ ∴ مِن الأمِّ بِابنَتِها الزَّائِرَهْ[3]

فيه استئناس الكلب بالضيوف، وهذا فيه دلالة على المبالغة في وصف الممدوح بالكرم، وسيأتي بيان مراحل الأُنْس التي تجاوزها الشاعر وجعل أعلاها هنا هو أُنْس الكلب بالضيوف، وقد استحسن الشيخ شاكر رواية الديوان: "وَكَلْبُكَ أَرْأَفُ بِالزَّائِرِينَ" بقوله: (هو في شعره المجموع، والرواية الصحيحة: "أَرْأَفُ بِالزَّائِرِينَ")[4]، ولعل ذلك؛ لأن الرأفة أشد الرحمة، أما الأُنس فهو خلاف الوحشة[5]، والروايات

---

(١) علم البيان، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار، القاهرة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص٢٣٥.

(٢) السابق، الصفحة نفسها.

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٤٠٠، والمعتفين: طلاب المعروف، الصحاح (عفا).

(٤) علم البيان، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، ص ٢٣٥.

(٥) ينظر: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ت: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، مصر، من دون تاريخ، ص ص٢٤٦، ٢٧٤.

الثلاث كناية عن صفة الكرم عند صاحب الكلب، فإذا كان هذا حال الكلب مع الضيوف، وطلاب المعروف، فما بالك بحال صاحب الكلب؟

ويلحظ ـ أيضًا ـ أنه عَقَّب على أُنْس الكلب بالضيف بدليل آخر على كرم الممدوح فقال:

وَكَفُّكَ حِينَ تَرى السائِلينَ ∴ أَنْدَى مِنَ اللَيلَةِ الماطِرهْ

وفي رواية: وَكَفُّكَ بِالجُودِ لِلسَّائِلِينِ ∴ أَنْدَى مِنَ اللَيلَةِ الماطِرهْ[١]

حيث جسدت الكناية كفَّ الممدوح، وجعلت كفه ترى السائلين، وتمطر عليهم العطاء بغزارة أندى من مطر الليل في الرواية الأولى، وفي الرواية الثانية قدم "الجُود" في قوله: "بِالجُودِ" على "السائلين"؛ للدلالة على اختصاص الممدوح بالجود والعطاء لكل السائلين.

ثم ختم مدحه بقوله:

فَمِنكَ العَطاءُ وَمنا الثَناء ∴ بِكُل مُحَبَّرَة سائِرَهْ

وفي رواية: فَمِنكَ الجَزَاءُ وَمِنِّى الثَنَاء ∴ بِكُل مُحَبَّرَة سائِرَهْ [٢]

والفرق بين الجزاء والعطاء: أن الجَزَاء: الغَنَاءُ والكفاية...، ويختص العطاء بالصلة[٣]، أي: أن عطاء وجزاء الممدوح للشاعر يأتي في موضعه؛ لأن الشاعر يُحَبِّر شِعره تحبيرًا.

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة، هامش ١/ ٤٠٠.

(٢) السابق، هامش الصفحة نفسها، ومَحُبَّرَة: مُحَسَّنة؛ لسان العرب (حبر).

(٣) ينظر: المفردات ١٠٠، ٣٤١.

أُنْس الكلب بالضيف عند ابن هَرْمَة:

قال ابن هَرْمَة: وَعَويْنَ يَستَعجِلْنَهُ فَلَقِيْنَهُ ∴ يَضْرِبْنَهُ بِشَراشِرِ الأَذْنابِ(١)

لقد جعل ابن هَرْمَة النبحَ هنا دليل فرح للكلاب يتبعه الحركة المعبرة عن أنس الكلاب بالضيف، واستعجاله للوصول إلى بيت صاحبهم، وقد أكد ابن هَرْمَة الكناية عن كرمه بقوله: "وَعَويْنَ يَستَعجِلْنَهُ..."، وتأمل جملة "وَعَويْنَ يَستَعجِلْنَهُ"، ثم ربطها بالفاء التي تفيد السرعة للقاء الضيف في قوله: "فَلَقِيْنَهُ يَضْرِبْنَهُ بِشَراشِرِ الأَذْنابِ" لترى مدى الحركة المعبرة عن أُنس الكلاب بالضيف، حيث يضربنه بذَنَبِهِم ويحركنه أُنسًا وحفاوة وترحابًا بالضيف، وتأمل صورة استحضار استعجال الضيف، وتحقق لقائه، وحيوية اللقاء والترحاب والأنس بالأفعال المتتالية "يَستَعجِلْنَهُ ـ لَقِيْنَهُ ـ يَضْرِبْنَهُ"، فإذا كان هذا حال استقبال الكلاب للضيف، فما بالك بصاحب الكلاب؟ وهذا يستلزم الكناية عن كرم صاحبهم، وهي ـ أيضًا ـ من الكناية البعيدة.

ثم بين علة فرح كلابه بالضيف؛ لأنها تعودت على معرفة أن صاحبهم سيذبح الناقة السمينة الفتيَّة أو المُسِنَّة للضيف فتصيب من قِرَاهم، وذلك في قوله:

عِرْفان أَنّي سَوفَ أَضْرِبُ عَبْطَةً ∴ دَمَ بَكرةٍ مَعْصُوبَةٍ أَوْ نابِ(٢)

---

(١) ديوان إبراهيم بن هَرْمَة، ص ٢٥٧، شرشر الكلب: ضرب بذَنَبِهِ وحركه للأنس؛ ينظر: لسان العرب (شرر).

(٢) عبطة: عَبَطَ الذَّبِيحةَ يَعْبِطُها عَبْطًا، واعْتَبَطَها اعْتِباطًا: نَحَرَها مِنْ غَيْرِ دَاءٍ وَلَا كَسْرٍ، وَهِيَ سَمينة فَتِيَّةٌ؛ لسان العرب (عبط)، بكرة: البكر: الفَتِيُّ من الإبل، والأنثى بِكْرَةٌ؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار (بكر)، دار العلم للملايين، بيروت، ط الرابعة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، معصوبة: المعصوب: الشديد اكتناز اللحم، السابق (عصب).

المبحث الثالث

بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بمبادلة الكَلَام للكلب وفرحه بالضيف

محاولة كَلَام الكلب للضيف وفرحه به عند ابن هَرْمَة:

قال ابن هَرْمَة في محاولة كَلَام الكلب للضيف:

يَكادُ إِذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلًا ∴ يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أَعجَمُ(١)

وقال ـ أيضًا ـ في فرح الكلب بالضيف لعادة النحر:

وَفَرحَةٌ مِن كِلابِ الحَيِّ يَتبَعُها ∴ شَحمٌ يَزِفُّ بِهِ الداعي وَتَرعيبُ(٢)

وقال ـ أيضًا ـ:

فَتَكادُ مِن عِرْفان ما قَدْ عُوِّدَت ∴ مِن ذاكَ أَنْ يَفْضَحْنَ بالتَّرْحابِ(٣)

حيث بين أن الكلاب تكاد أن تَفْضَحَ أو تُفْصِحَ بالترحاب من كثرة ما تعودت من عرفانهم كثرة ذبح صاحبهم للضيوف، وهذا ـ أيضًا ـ يستلزم الكناية عن كرم صاحبهم.

وإذا تأملت الفرق بين قول نُصَيْب السابق:

وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ ∴ مِن الأمِّ بِالابْنَةِ الزَّائِرَهْ

تجد صلة رحم بينه وبين قول ابن هَرْمَة، وتجد زيادة لطف في قوله:

يَكادُ إِذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلًا ∴ يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أَعجَمُ

---

(١) ديوان إبراهيم بن هَرْمَة، ص ٢٠٩.

(٢) السابق، ص ٦١.

(٣) السابق، ص ٢٥٨.

وتأمل أُنس الكلب بالضيوف عند نُصَيْب، وصورة وصف حُبّ الكلب للضيف عند ابن هَرْمَة التي تجاوزت الأُنس إلى كونه يهش للضيف عندما يراه مقبلًا، وهذا يدل على كثرة مشاهدته إياه، ويكاد يكلمه من حبه، وذلك يدل على معرفته بالضيف؛ لتردده على بيت صاحبه، وهذا دليل على كرم صاحبه، ووفرة جوده بطريق الكناية، فقد جاءت الكناية البعيدة هنا ـ أيضًا ـ بواسطة سلسلة لوازم، فإذا نظرت إلى الصورتين تجد (أن بينهما قرابةً شديدةً، ونسبًا لاصقًا)[1]، وتجد أنهما صورة متآلفة للكناية عن المعنى الواحد، أي: أن المعنى المكنى عنه واحد في هاتين الصورتين؛ لأن الكلب فيهما مرحب بالضيوف، فما بالك بصاحب الكلب[2]، لكن ترحيب الكلب عند ابن هَرْمَة أبلغ من ترحيب الكلب عند نُصَيْب؛ لأن نُصَيْبًا جعل للكلب أُنْسًا بالزائرين (وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ...)، بينما ابن هَرْمَة جعل الكلب يحاول أن يكلم الضيف رغم أنه أعجم، فجعل للكلب الأعجم الفصاحة في صورة مجازية (يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أَعجَمُ)، وقد مَهَّدَ ابن هَرْمَة لكنايته اللطيفة بالمرحلة الأولى وهي مرحلة نباح الكلب للضيف ـ التي سبق بيانها في المبحث الأول ـ بقوله:

وَمُستَنبِحٍ تَستَكشِطُ الريحُ ثَوبَهُ ∴ لِيَسقُطَ عَنهُ وَهوَ بِالثَوبِ مُعصِمُ [3]

عَوى في سَوادِ اللَيلِ بَعدَ اِعتِسافِهِ ∴ لِيَنبحَ كَلبٌ أَو لِيَفزَعَ نُوَّمُ [4]

فَجاوَبَهُ مُستَمِعُ الصَوتِ لِلقرى ∴ لَهُ مَعَ إِتيانِ المُهِبِّينَ مَطعَمُ[5]

---

(١) دلائل الإعجاز، ت: الشيخ شاكر، ص ٣٠٩.

(٢) ينظر: شرح دلائل الإعجاز، د. محمد إبراهيم شادي، ص ص ٣٩٨، ٣٩٩.

(٣) تَستَكشِطُ: تكشف؛ تاج العروس (كشط)، ومُعصِمُ: مستمسك؛ لسان العرب (عصم).

(٤) الاعتساف: السَّير بِغَيْرِ هِدَايَةٍ، والأَخْذُ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ؛ السابق العرب (عسف)، والمُهِبِّين: الضيوف، وهو: مِنْ هَبَّ النائمُ إذا اسْتَيْقَظَ؛ ينظر: لسان العرب (هبب).

(٥) ديوان إبراهيم بن هَرْمَة، ص ٢٠٨.

ففي قوله: (وَمُستَنبِحٍ تَستَكشِطُ الريحُ ثَوبَهُ...)، أي: ورُبَّ مُستَنبِحٍ يطلب نباح الكلب ليهتدي الضيف إلى مكان صاحبه، وهو في طريقه يجاذب الريح ثوبه، وهو ممسك به، وهذه هي المرحلة الأولى في الدلالة على الكرم، وهي مرحلة نباح الكلب ليهتدي الضيف إلى مكان صاحبه، وفي قوله: (عَوى في سَوادِ اللَيلِ بَعدَ اِعتِسافِهِ...)، أي: صاح ونبح بصوت يشبه عواء الكلب، لعل كلبًا يسمعه فيجيبه في ظلمة الليل، وهو يسير على غير هداية فيهتدي بصوت الكلب ليفزع صاحبه لاستقبال الضيف، وفي قوله: (فَجاوَبَهُ مُستَسمِعُ الصَوتِ لِلقرى...)، أي: (لما عوى جاوبه كلب يَدعُوهُ إِلَى القرى؛ لِأَن لَهُ عِنْد حُضُور الأضياف مطعمًا مِمَّا ينْحَر لَهُم من الإِبِل)[1]، ثم تحول ابن هَرْمَة من مرحلة نباح الكلب للضيف إلى مرحلة محاولة الكلب أن يكلم الضيف حبًا له رغم عجمته بقوله:

يَكادُ إِذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلًا ∴ يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أَعجَمُ

نَقْدُ ابن قُدَامَة لابن هَرْمَة:

وقد نقد قُدَامة قول ابن هَرْمَة بقوله: (ومن التناقض قول ابن هَرْمَة:

تراهُ إذا أبصرَ الضيفَ كلبُهُ ∴ يكلمُهُ من حبّهِ وهو أعجمُ

فإن هذا الشاعر أقنى الكلب الكلام، في قوله: "أنه يكلمه"، ثم أعدمه إياه عند قوله: "إنه أعجم"، من غير أن يزيد في القول ما يدل على أن ما ذكره إنما أجراه على طريق الاستعارة، فإن عذر هذا الشاعر ببعض المعاذير، إذ كانت الحجج كثيرة، فهلا قال كما قال عنترة العبسي:

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ٢٦١، دار القلم، بيروت من دون تاريخ.

فَازوَرَّ مِن وَقعِ القَنا بِلَبانِهِ ∴ وَشَكا إِلَيَّ بِعَبرَةٍ وَتَحَمحُمِ[1]

فلم يخرج الفرس عما له من التحَمحُم إلى الكلام، ثم قال:

لَو كانَ يَدري ما المُحاوَرَةُ اشتَكى ∴ وَلَكانَ لَو عَلِمَ الكَلامَ مُكَلِّمي[2]

فوضع عنترة ما أراده في موضعه)[3].

وقد رأى صاحب الموشح أن أهل العلم بالشعر يستحسنون قول عنترة العبسي فيما أخبر به عن شكيّة فرسه إليه التعبَ لدوَامِ الحرب، ثم أورد نقد قُدَامةَ لابن هَرْمَة، ولم يبين صاحب الموشح وجه استحسان قول عنترة على ابن هَرْمَة [4].

الرَّدُّ عَلَى نَقْدِ ابن قُدَامَة لابن هَرْمَة:

لكن رُدَّ على نقد قُدَامة، (وهذا غلط من أبي الفرج طريف، "أي: "قُدَامة"؛ لأن الأعجم ليس هو الذي قد عدم الكلام جملة كالأخرس، وإنما هو الذي يتكلم بعجمة ولا يفصح، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل:١٠٣]، وإذا قيل: فلان يتكلم وهو أعجم لم يكن ذلك متناقضًا على أن الرواية الصحيحة في بيت ابن هَرْمَة: "يَكادُ إِذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلاً"، وهذا البيت من إحسان ابن هَرْمَة المشهور)[5].

---

(١) شرح ديوان عنترة للتبريزي، ت: مجيد طرَاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص١٨٣.

(٢) السابق، الصفحة نفسها.

(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط الأولى، ١٣٠٢، ص ٨٢.

(٤) المُوشَّح للِمَرزُباني، ت: علي محمد البجاوي، نهضة مصر، من دون تاريخ، ص٢٨٥.

(٥) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، ت: إبراهيم مكي طنطاوي، دار الغد الجديد، القاهرة، ط الأولى ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م، ص٢٦٠، وقد روى صاحب البيان والتبيين البيت برواية أخرى: (تراهُ إذا ما أبصرَ الضيفَ كلبُهُ ∴ يكلمُهُ من حُبِّهِ وهو أعجَمُ). البيان والتبيين للجاحظ، ت: ←←←

ومن البين أن هناك فرقًا بين طبيعة الفكرة في البيتين، (فابن هَرْمَة جعل كلبه يكلم الضيف رغم عجمته، بينما فرس عنترة لا يزال كما هو يحَمحم حَمحمة يحبسها الجهل بالكلام... الصفة الحقيقية في بيت ابن هَرْمَة ذهبت، وحلت محلها صفة مجازية أو خيالية هي فصاحة ذلك الأعجم، والخلابة في هذه الحقيقة المجازية هي وليدة هذا التناقض العجيب الذي طالما أطراه عبد القاهر، وهو يذكر قدرة المجاز على أن ينطق لك الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، والتئام عين الأضداد ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ، وكان قُدَامة ذا عقلية علمية واعية، ولكنه كان قليل الحظ من الحس بأسرار العبارة، وجلال بلاغتها) [١].

وإذا تأملت نقد قُدَامة للبيت وجدته قد انشغل بظاهر الألفاظ ولم ينشغل بأسرار معانيها، حيث إن الشاعر عنده تناقض في إثبات الكلام له في قوله: "يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ"، ونفى عنه الكلام في قوله: "وَهوَ أَعجَمُ"، ولم ينشغل بسر الكناية بحب الكلب للضيف عن وفرة جود صاحبه، وسر اللطف الذي وراء هذه الكناية هو المطلوب في البيت، (وزيادة اللطف فيه ناشئة من المبالغة في محاولة الكلب أن يكلمه)[٢]، ويمكن أن يقال: صُدِّرَ البيت بالفعل "يَكَادُ"، والضمير فيه عائد على الكلب، ليُخرج المبالغة عن الغلو غير المقبول، ولكن حَمل البيت على المجاز أَخْلَب؛ لأن قُدرة المجاز على انطاق الأعجم أبلغ.

←←←

موفَّق شهاب الدين ٣/ ١٣١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الثانية ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(١) التصوير البياني، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط السابعة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ٤٣١، ٤٣٢.

(٢) بغية الإيضاح، ٣/ ١٥٥، ط العاشرة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

موازنة بين أُنْس الكلب بالضيف عند نُصَيْب، ومحاولة كلامه للضيف وفرحه به عند ابن هَرْمَة:

إن صورة الكناية عن المعنى الواحد بين نُصَيْب وابن هَرْمَة ترى فيهما من فرط التناسب في الصورة والقرابة الشديدة في النسب، والمعنى المكنى عنه واحد في الصورتين، لكن صورة ابن هَرْمَة أبلغ من صورة نُصَيْب بسبب اللطف الناشئ من المبالغة في محاولة الكلب الأعجم الفصاحة في صورة مجازية، وقد أجاد ابن هَرْمَة في هذه الصورة المجازية أكثر من غيرها، فإذا وضعت هذه الصورة المجازية بجوار قوله في فرح الكلب بالضيف لعادة النحر:

وَفَرحَةٌ مِن كِلابِ الحَيِّ يَتبَعُها ∴ شَحمٌ يَزِفُّ بِهِ الداعي وَتَرعيبُ[1]

فَتَكادُ مِن عِرْفان ما قَدْ عُوِّدَت ∴ مِن ذاكَ أَنْ يَفْضَحْنَ بالتَّرْحابِ[2]

ستجد أن قوله:

يَكادُ إِذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلًا ∴ يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أَعجَمُ

يزيد حسنًا وبلاغة بسبب إنطاق الكلب الأعجم في صورة مجازية كما سبق، أما قوله: (وَفَرحَةٌ مِن كِلابِ الحَيِّ يَتبَعُها...)، فإن فرحة كلاب الحي بالضيف، وإفصاحه بالترحاب، وإن كانت من صور الكناية عن الكرم، لكنها لا تبلغ في بلاغتها الحسن الذي وصل إلى إنطاق الكلب الأعجم مع الضيف في صورة مجازية، هذا بالإضافة إلى أن الكلب يحب المناخ الذي تُنْحَر فيه الإبل؛ لكي يَأْكُلَ ويَخْصَب، بينما تكره الناقة هذا المناخ؛ لأنها تخاف النحر، فالكناية عن الكرم بفرحة الكلب بالضيف عَكَّرَ صفوها

---

(١) ديوان إبراهيم بن هرمة، ص ٦١، والزَّفِيفُ: الإسْراعُ ومقاربةُ الخَطْوِ. لسان العرب (زفف)، والتِّرْعِيبُ: السنامُ المُقَطَّع؛ السابق (رعب).

(٢) ديوان إبراهيم بن هرمة، ص ٢٥٨.

أن الشاعر جعل الكلب يفرح من أجل أكله من الأكل الذي يقدم للضيف، بدليل قوله: (...يَتبَعُها ∴ شَحمٌ يَزِفُّ بِهِ الداعي وَتَرعيبُ)، (فَتَكادُ مِن عِرْفان ما قَدْ عُوِّدَت...)، وأكل الكلب هنا يسبق أكل الضيف؛ لأنه يأكل من اللحم النيئ قبل طبخه للضيف، ويدل على ذلك قول الأعرابيّ:

أخُو ثِقَةٍ قَد يحسَب المَجد فرصَة ∴ إلَى أهلِهِ أو ذمّة لا تخفّرُ[١]

حَبيبٌ إلى كَلبِ الكَريمِ نُباحُه ∴ كريهٌ إلى الكَومَاءِ والكلب أبصرُ

وفي رواية:

حبيبٌ إلى كلبِ الكريمِ مُناخُه ∴ كريهٌ إلى الكوماءِ والكلب أبصرُ[٢]

أما إذا قارنتَ قول ابن هَرْمَة:

وَفَرحَةٌ مِن كِلابِ الحَيِّ يَتبَعُها ∴ شَحمٌ يَزِفُّ بِهِ الداعي وَتَرعيبُ

وقوله:

فَتَكادُ مِن عِرْفان ما قَدْ عُوِّدَت ∴ مِن ذاكَ أَنْ يَفْضَحْنَ بالتَّرْحابِ[٣]

بقول نُصَيْب:

وَكَلْبُكَ أَرْأَفُ بِالزَّائِرِينَ ∴ مِن الأمِّ بِابِنَتِها الزَّائِرَهْ

وفي رواية: وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ ∴ مِن الأمِّ بِالابْنَةِ الزَّائِرَهْ

---

(١) خَفَرَ (بِهِ خَفْرًا) ، بِفَتْح فَسُكُون، (وخُفُورًا): نَقَضَ عَهْدَه، وخاسَ بِهِ، وغَدَرَه؛ تاج العروس (خفر).

(٢) الحيوان للجاحظ ٢٥٦/١، والنَّاقَةِ الكَوْماء: هِيَ الطَّويلة السَّنام، والكَوَمُ عِظَم فِي السَّنَامِ؛ لسان العرب (كمي).

(٣) ديوان إبراهيم بن هرمة، ص ٢٥٨.

تجد أن صورة رَأْفَةِ أو أُنْسِ الكلب بالضيوف أعلى درجة من صورة فَرحة كلاب الحي بالضيف، وإن كان كلاهما يعبران عن حالة المرح والسرور والحفاوة البينة؛ لأن صورة رَأْفَةِ أو أُنْسِ الكلب بالضيوف قُيِّدَتْ بكونها أَرْأَفُ أو آنَسُ بالضيوف من الأم بابنتها الزائرة، ولفظ "أَرْأَفُ أو آنَسُ" اسم تفضيل، ورأفة الأم أو أُنْسها بابنتها يزيد عن أُنْس غيرها من غير بناتها، والبنت إذا كانت زائرة لأمها فأُنْس أمها معها يزيد عن أُنس بنتها غير الزائرة، فجعل الشاعر للكلب أُنْسَا يزيد على أُنس الأم بابنتها الزائرة، فتأمل مراحل الأُنس التي تجاوزها الشاعر، وجعل أعلاها مرتبة هنا للكلب بضيوفه، وهذه مبالغة في استئناس الكلب بضيوفه، ومن ثَمَّ يلزم من ذلك المبالغة في وصف الممدوح بالكرم، هذا إلى جانب أن صورة رَأْفَةِ أو أُنْسِ الكلب بالضيوف مع كونها قُيِّدَتْ بأنها أَرْأَفُ أو آنَسُ بالضيوف من الأم بابنتها الزائرة، لكنها خلت من كون أنَّ رَأْفَةِ أو أُنْسِ الكلب بالضيوف مترتب على الأكل من الأكل الذي يقدم للضيف؛ لأن رأفة أو أُنْس الكلب بالضيوف حاصل سواء أكل الكلب من الأكل الذي يقدم للضيوف أم لم يأكل، وكذلك رأفة أو أُنْس الأم بابنتها الزائرة لا يترتب عليها الأكل، فرأفة أو أُنْس الأم بابنتها الزائرة حاصلة سواء أكلت الأمُّ من الأكل الذي تقدمه لابنتها أم لم تأكل، وقد تؤثر الأم ابنتها الزائرة على نفسها من أجل إطعامها، وهذه عاطفة الأمومة التي يريد الشاعر أن يأخذ منها أُنْسَهَا، ويجعل أُنْس الكلب بالضيف يزيد على أُنْس الأم بابنتها الزائرة مبالغة في الكناية عن كرم الممدوح، وكذلك المبالغة في محاولة الكلب الأعجم الكلام مع الضيف حاصلة سواء أكل الكلب من الأكل الذي يقدم للضيف أم لم يأكل، أما صورة فرحة كلاب الحي بالضيف فإنه يترتب عليها أكل كلاب الحي من الأكل الذي يقدم للضيف:

وَفَرحَةٌ مِن كِلابِ الحَيِّ يَتبَعُها ∴ شَحمٌ يَزِفُّ بِهِ الداعي وَتَرعيبُ

فَتَكادُ مِن عِرْفان ما قَدْ عُوِّدَت ∴ مِن ذاكَ أَنْ يَفْضَحْنَ بالتَّرْحابِ

فكأن صورة فرحة كلاب الحي بالضيف مقرونة بسبب انتفاع الكلاب من الأكل الذي يقدم للضيف، فكأنه إذا لم يتبعها أكل الكلاب انتفت هذه الفرحة، أو على الأقل خَفَّت وضَعُفَت، ومن هنا آثر الشيخ عبد القاهر الجرجاني أن يربط صورة أُنْس الكلب بالضيوف في قول نُصَيْب:

وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ ∴ مِن الأمِّ بِالابْنَةِ الزَّائِرَهْ

بصورة محاولة الكلب الأعجم الكلام مع الضيف في قول ابن هَرْمَة:

يَكادُ إِذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلًا ∴ يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أَعجَمُ

ولم يربطها بصورة فرحة كلاب الحي بالضيف في قول ابن هَرْمَة:

وَفَرحَةٌ مِن كِلابِ الحَيِّ يَتبَعُها ∴ شَحمٌ يَزِفُّ بِهِ الداعي وَتَرعيبُ

فَتَكادُ مِن عِرْفان ما قَدْ عُوِّدَت ∴ مِن ذاكَ أَنْ يَفْضَحْنَ بالتَّرْحابِ

رغم أن صورة فرحة كلاب الحي بالضيف كناية عن الكرم ـ أيضًا ـ؛ وذلك لفرط التناسب والقرابة الشديدة والنسب اللاصق الذي أشار إليه الإمام عبد القاهر[1]، بين مرحلة أُنس الكلب بالضيوف الذي دل على المبالغة في كرم صاحبه، وبين مرحلة محاولة الكلب الأعجم الكلام مع الضيف، وهذا أدعى إلى الاتصاف بصفة الكرم من مرحلة الأنس؛ لأن أُنْس الكلب بالضيف تحول إلى حب للضيف يكاد أن يكلمه مُرَحِّبًا في صورة مجازية خلابة؛ ولأنه في كلتا المرحلتين لم يكن سببهما انتفاع الكلب من الأكل الذي يقدم للضيف؛ ولذلك قال حاتم الطائي وهو سيّد الأجواد بالطعام:

أُضاحِكُ ضَيْفي قبلَ إنْزالِ رَحْلِه ∴ ويُخْصِبُ عندي والمَحَلُّ جَديبُ

(١) دلائل الإعجاز، ت: الشيخ شاكر، ص ٣٠٩.

وما الخِصْبُ لِلأضيافِ أنْ يَكْثُرَ القِرَى ∴ ولكنّما وَجْهُ الكريمِ خَصِيبُ[1]

وعلى ذلك فإن ابن هَرْمَة هنا له القدح المُعَلَّى في الكرم في قوله: (يَكادُ إذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلاً...).

الفرق بين محاولة كلام الكلب للضيف، وأُنْس الكلب بالضيوف، وجُبْن الكلب أمام الضيوف:

محاولة كلام الكلب للضيف في قول ابن هَرْمَة:

يَكادُ إذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلاً ∴ يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أَعجَمُ

وأُنْس الكلب بالضيوف في قول نُصَيْب:

وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ ∴ مِن الأمِّ بِالابْنَةِ الزَّائِرَهْ

وجُبْن الكلب أمام الضيوف في قول الآخر:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإنِّي ∴ جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيلِ

إن محاولة كلام الكلب للضيف في قول ابن هرمة: (يَكادُ إذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلاً...) تمتزج الكناية فيه بالكرم عن صاحبه؛ لأن الكلب لما أبصره كان به حفيًا، ومن حبه له يكاد يكلمه رغم عجمته (يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أَعجَمُ)، وهذه الحفاوة والحب من الكلب للضيف لا تُثْمِرُ إلا عن معرفة سابقة للضيف، وقد نبت جذر هذه المعرفة عبر ارتوائها بأُلْفة وكثرة مجيء الضيف لبيت صاحب الكلب مرة تلو الأخرى،

---

(١) الذخائر والعبقريات للبرقوقي ١/ ١٣٠ ، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، من دون تاريخ، والبيتان وجدتهما تحت عنوان: "زيادات الديوان ما نسب لحاتم وليس له" في ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره ليحيى بن مدرك الطائي، وهشام بن محمد الكلبي، ت: د. عادل سليمان جمال، ٢٩، ٢٩٣، ووجدتهما في ديوان شعر مسكين الدارمي، ت: كارين، صادر ٢٦، دار صادر، بيروت، ط الأولى ٢٠٠٠م.

وهذا يستلزم الكناية عن كرم صاحب الكلب، وهذه الكناية أساس وأصل للكناية في قول نُصَيْب: (وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ...)؛ لأنه إذا تأملت فيهما تلحظ (أن بينهما قرابةً شديدةً، ونسبًا لاصقًا)[١]؛ وذلك لأن الكلب فيهما يحتفي بالضيوف، ويهش لهم، وإذا كان هذا حال الكلب بالضيوف فما بالك بحال صاحبه؟ وعلى ذلك فالصورتان متناسبتان في معنى واحد فيهما، وهو الكناية عن الكرم.

والفرق بين محاولة كلام الكلب للضيف في قول ابن هَرْمَة: (يَكادُ إِذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلاً...)، وأُنْس الكلب بالضيوف في قول نُصَيْب: (وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ...)، وبين جُبْن الكلب أمام الضيف في قول الآخر: (جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيلِ)، أن محاولة كلام الكلب للضيف وحبه له، وأُنْسَهُ به نتجت ثمرتهما عن طريق مَعْرِفة سابقة، ارتوت بأُلْفة وكثرة مجيء الضيف لبيت صاحب الكلب مرة تلو الأخرى كما سبق، أما (جُبْن الكلب) فقد أثمر نتيجة استمرار زجر الكلب من صاحبه أمام الضيوف، حتى صار متأدبًا معهم، وتحول الكلب من النبح والهرير أمام الضيوف إلى الجُبْن بعد كثرة الزَّجْر، فصار جَبَانًا بعد أن كان شَرِسًا، وإذا تأملت في هذه الصور الثلاثة تلحظ أن المعنى المكنى عنه واحد فيهم جميعًا، وهو الكناية عن الكرم.

وتلحظ أن في قوله: (جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيلِ) اجتمع كنايتانِ عن صفة الكرم، المغزى منهما شيء واحد، لكن لا تكون إحداهما في حُكْم النظير للأخرى، فلا يكون قوله: "جَبَانُ الكَلْبِ" نظيرًا لقوله: "مَهْزولُ الفَصِيلِ"، بل كل واحدة من هاتين الكنايتين أصلٌ بنفسه، وجنس على حدة، وكذلك قَوْلُ ابن هَرْمَة:

---

(١) دلائل الإعجاز، ت: الشيخ شاكر، ص ٣٠٩.

لا أُمتِعُ العُوذَ بالفِصالِ وَلا ∴ أَبتاعُ إلّا قَريبَةَ الأَجَلِ[1]

ليس إحدى كنايتيه في حكم النظير للأخرى، وإن كان المكنىُّ بهما عنه واحدًا، فاعرفْهُ، وليس لِشُعبِ هذا الأصل وفُروعه وأمثلته وصُوَره وطُرُقِه ومَسَالِكِهِ حَدٌّ ونهاية[2].

فقد اجتمع كنايتان في بيت واحد في قول القائل:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإنِّي ∴ جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيلِ

الأولى في قوله: (جَبَانُ الكَلْبِ)، وجُبْن الكلب يستلزم كثرة زجره عند تردد الضيوف في وقت الظُّلمة على بيت صاحبه ذهابًا وإيابًا، واستمرار زجره يؤدي إلى جُبْنِه، وهذا يدل على الكناية عن كرم صاحبه، والثانية في قوله: (مَهْزولُ الفَصِيلِ)، وذلك يستلزم فَقْدَ أمه أو فَقْدَ لبنها؛ لأن هُزَال الفصيل لا يكون إلا بِفَقْدِ أحدهما، إما بذبح أُمِّه، أو تقديم لبنها للضيوف، وهذا يستلزم الكناية عن كرمه، وتعدد الوسائط زاد من خفاء هاتين الكنايتين، وتأكيد المدح بما يشبه الذم[3]، في قوله: (وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإنِّي...)، أي: لا عيب فيه إلا هاتان الكنايتان عن كرمه، جاء مفاجأة لهذا الخفاء، ولكن ليس إحداهما نظيرًا للأخرى، أي: بينهما قدر من الاختلاف؛ لأن (كل

---

(١) ديوان إبراهيم بن هَرْمَة: ٤١، ٤٢، ١٨٣، العُوذ: النَّاقَةُ إذا وَضَعَتْ وَلَدَهَا فَهِيَ عَائِذٌ أَيامًا، ووقَّت بَعْضُهُمْ سَبْعَةَ أَيام، وَقِيلَ: سُمِّيَتِ النَّاقَةُ عَائِذًا؛ لأَنّ وَلَدَهَا يَعُوذُ بِهَا. لسان العرب (عوذ). والفِصال: وَلَدُ النَّاقَةِ إذا فُصِل عَنْ أُمه؛ السابق (فصل).

(٢) دلائل الإعجاز، ت: الشيخ شاكر، ص ص ٣١٢، ٣١٣.

(٣) تأكيد المدح بما يشبه الذم: أن يُسْتَثْنَى من صفة ذمٍّ مَنْفيةٍ عن الشيء صفةُ مدحٍ بتقدير دخولِهَا فيها، أي: دخول صفة المدح في صفة الذم؛ المطول للتفتازاني، ت: د. عبد الحميد هنداوي ، لبنان، ط الثالثة ـ ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م، ص ٦٧٣.

واحدة من هاتين الكنايتين أصلٌ بنفسه، وجنس على حدة)[١]، رغم أن المعنى المكني عنه واحد، وهو الكرم.

وقد اجتمع كنايتان ـ أيضًا ـ في بيت واحد في قول ابن هَرْمَة:

لا أُمتِعُ العُوذَ بالفِصالِ وَلا ∴ أَبتاعُ إِلّا قَريبَةَ الأَجَلِ

الأولى في قوله: (لا أُمتِعُ العُوذَ بالفِصالِ)، أي: لا يترك العُوذ وهي الناقة التي ولدت تتمتع وتأنس بالفصال وهو ولد الناقة الذي فُصِلَ عن أمه، وإنما يذبح أحدهما أو كلاهما معًا من أجل تقديم لحومهما للضيوف، وذلك كناية عن كرمه، والثانية في قوله: (وَلا أَبتاعُ إِلّا قَريبَةَ الأَجَلِ)، أي: إذا اشترى نوقًا فإنه لا يشتريها لتبقى عنده، وإنما يشتريها ليذبحها لضيوفه، وقُرْبُ الأجل يدل على سرعة ذبحها لضيوفه، وذلك ـ أيضًا ـ كناية عن كرمه، وصورة عدم امتاع العُوذ بالفِصَال أبلغ دلالة على الكرم؛ لأنه يذبح عُوذًا وفصالًا عديدة بلفظ الجمع، وتعدد الوسائط زاد من خفاء هاتين الكنايتين، ولكن ليست إحدى الكنايتين نظيرًا للأخرى، أي: بينهما قدر من الاختلاف؛ لأن كل واحدة من هاتين الكنايتين أصلٌ بنفسه، وجنس على حدة ـ كما قال الإمام عبد القاهر ـ رغم أن المعنى المكني عنه واحد، وهو الكرم.

والله تعالى أعلى وأعلم

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، ت: الشيخ شاكر، ص ٣١٢.

الخاتمــة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد،،،،،،،

وبعد هذه الجولة الندية حول الدراسة في ظلال الشعر العربي توصلت إلى النتائج الآتية:

ـ أن الدراسة تناولت ثلاثة وعشرين بيتًا، منها أحد عشر بيتًا في نبح الكلب للضيف، وبيتان في زجره للضيف، وبيتٌ واحدٌ في جبنه أمام الضيوف، وستة أبيات في أُنْسه بالضيف، وبيت واحد في محاولة كلامه للضيف، وبيتان في فرحه بالضيف، ومن خلال ذلك تبين تفاوت الدلالة على الكرم باستخدام الكلب.

ـ تنوع الأساليب البلاغية التي تعانقت مع الكناية عن الكرم، فقد جاء أسلوب التجريد مع مرحلة نبح الكلب في قول ابن هَرْمَة:

وَسَلِ الجارَ وَالمُعَصِّبَ وَالأضـ ∴ ـيافَ وَهنًا إذا تَحَيّوا لَدَيّا

كَيفَ يَلقَونَني إذا نَبَحَ الكَلـ ∴ ـبُ وَراءَ الكُسُورِ نَبحًا خَفيّا

فكأنه جَرَّدَ من نفسه سائلًا يسأل هؤلاء الثلاثة، "الجار، والمُعَصّب، والأضياف"؛ ليؤكد ابن هَرْمَة على شدة كرمه.

ـ جاءت الأفعال المضارعة لتصور استحضار مشاهد الكرم، وكأنك تراها على التوِّ، مثل الفعل : "يَلقَونَني" في قول ابن هَرْمَة: (كَيفَ يَلقَونَني إذا نَبَحَ الكَلبُ...)، ومثل: "يَستَعجِلْنَهُ ـ يَضْرِبْنَهُ" في قوله:

وَعَويْنَ يَستَعجِلْنَهُ فَلَقِيْنَهُ ∴ يَضْرِبْنَهُ بِشَراشِرِ الأَذنابِ

وتأمل مدى الحركة المعبرة عن أُنس الكلاب بالضيف، في الفعلين: "يَستَعجِلْنَهُ ـ يَضْرِبْنَهُ"، حيث يضربنه بذَنَبِهِم ويحركنه أُنسًا وحفاوةً وترحابًا بالضيف، فإذا كان هذا حال استقبال الكلاب للضيف، فما بالك بصاحب الكلاب؟

ـ ظهرت الجملة الأم، أو المعنى الأم، أو البيت الأم في قول شَبِيْب بن البَرْصَاء:

رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فلما اهتدَى بها ∴ زَجَرْتُ كِلَابي أن يَهِرَّ عَقُورُها

حيث (ترى المعنى فيه يبدأ بجملة هي جذرُه، ثم يأتي ما بعدها، وكأنه تفصيل لها، وتوسيع لدائرتها)[1]، وهي تؤكد على المبالغة في الكناية عن كرمه بزجر كلابه، فقد أتى بالدليل على دعواه، والبرهان على معناه؛ لأن زجرهم يؤدي إلى جبنهم، وجبنهم لا يكون إلا بعد استمرار زجرهم، وذلك يستلزم استمرار تردد الضيف على هذا المكان ذهابًا وإيابًا، ومن ثَمَّ يستلزم ذلك الكناية عن كرم صاحب الكلاب.

ـ الصَّنْعة في طريق الإثبات، ورباط التناسب بين زَجْر الكلب في قول شَبِيْب بن البَرْصَاء:

رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فلما اهتدَى بها ∴ زَجَرْتُ كِلَابي أن يَهِرَّ عَقُورُها

وجُبْنِه في قول القائل:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي ∴ جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيلِ

الذي أشار إليه الإمام عبد القاهر بين استمرار زجر الكلب الذي يؤدي إلى جبنه، وأنه لم يكن جبنه إلا بعد استمرار زجره جعل قوله: "جَبَانُ الكَلْبِ"، نظير قوله: "زَجَرْتُ كِلَابي" في الدلالة على الكرم.

ـ جاء ترحيب الكلب عند ابن هَرْمَة في قوله:

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري، د. محمد أبو موسى ص ٤٠٥.

يَكادُ إذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلًا ∴ يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أَعجَمُ

أبلغ من ترحيب الكلب عند نُصَيْب في قوله:

وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ ∴ مِن الأمِّ بِالابْنَةِ الزَّائِرَهْ

لأن نُصَيْبًا جعل للكلب أُنْسًا بالزائرين، بينما ابن هَرْمَة جعل الكلب يحاول أن يكلم الضيف رغم عجمته، فجعل للكلب الأعجم الفصاحة في صورة مجازية، فإذا نظرت إلى الصورتين تجد (أن بينهما قرابةً شديدةً، ونسبًا لاصقًا)[1]، وتجد أنهما صورة متآلفة للكناية عن المعنى الواحد.

ـ جاء نقد قُدَامَة لبيت ابن هَرْمَة:

(يَكادُ إذا ما أَبصَرَ الضَيفَ مُقبِلاً ∴ يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ وَهوَ أَعجَمُ)

مبنيًا على انشغاله بظاهر الألفاظ، ولم ينشغل بأسرار معانيها، حيث إن الشاعر عنده تناقض في إثبات الكلام له في قوله: "يُكَلِّمُهُ مِن حُبِّهِ"، ونفى عنه الكلام في قوله: "وَهوَ أَعجَمُ"، ولم ينشغل بسر الكناية بحب الكلب للضيف عن وفرة جود صاحبه، وسر اللطف الذي وراء هذه الكناية هو المطلوب في البيت، وهو محاولة الكلب كلام الضيف في صورة مجازية خلابة، ويمكن أن يقال: صُدِّرَ البيت بالفعل "يَكَادُ"، والضمير فيه عائد على الكلب، ليُخرج المبالغة عن الغلو غير المقبول، ولكن حَمل البيت على المجاز أخْلَب؛ لأن قُدرة المجاز على انطاق الأعجم أبلغ.

ـ جاء اجتماع كنايتين في بيت واحد، لكن ليس بينهما قرابة شديدة ونسب لاصق، كما في قول القائل:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي ∴ جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيلِ

---

(١) دلائل الإعجاز، ت: الشيخ شاكر، ص ٣٠٩.

وهما: (جَبَانُ الكَلْبِ)، وجُبْن الكلب يستلزم كثرة زجره عند تردد الضيوف في وقت الظُلمة على بيت صاحبه ذهابًا وإيابًا، واستمرار زجره يؤدي إلى جُبْنِه، وهذا يدل على الكناية عن كرم صاحبه، و(مَهْزولُ الفَصِيلِ) يستلزم فَقْدَ أمه أو فَقْدَ لبنها؛ لأن هُزَال الفصيل لا يكون إلا بِفَقْدِ أحدهما، إما بذبح أُمِّه، أو تقديم لبنها للضيوف، وهذا يستلزم الكناية عن كرمه، ولكن ليست إحدى الكنايتين نظيرًا للأخرى، أي: بينهما قدر من الاختلاف؛ لأن (كل واحدة من هاتين الكنايتين أصلٌ بنفسه، وجنس على حدة)[1]، رغم أن المعنى المكني عنه واحد، وهو الكرم.

والله ولي التوفيق

(١) السابق، ص ٣١٢.

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم جل من أنزله.

١. الاختيارين للأخفش الأصغر، ت/ فخر الدين قباوة، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط الأولى١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٢. أساس البلاغة للزمخشري، ت/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
٣. أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت/ الشيخ / محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة وجدة، ط الأولي ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١م
٤. الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، ط الخامسة عشر ٢٠٠٢م.
٥. الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ت/ سمير رجب، دار الفكر بيروت، ط الثانية من دون تاريخ.
٦. آل حم غافر، فصلت دراسة في أسرار البيان د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط الثانية ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
٧. الإيضاح للخطيب القزويني، ت د/ محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة المعارف، الرياض، ط الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
٨. بغية الإيضاح للشيخ /عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط التاسعة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ط السابعة عشر ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٩. البيان والتبيين للجاحظ، ت/ موفَّق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط الثانية ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
١٠. تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، ت/ مجموعة من المحققين، دار الهداية من دون تاريخ.

١١. التصوير البياني د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط السابعة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
١٢. تهذيب اللغة للأزهري ت/ محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الأولى٢٠٠١م.
١٣. جمهرة اللغة لابن دريد، ت/ رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط الأولى١٩٨٧م.
١٤. الحيوان للجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الثانية ١٤٢٤هـ.
١٥. دلائل الإعجاز للإمام/ عبد القاهر الجرجاني، ت الشيخ/ محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط الثالثة ١٤١٣هـ /١٩٩٢م.
١٦. ديوان إبراهيم بن هَرْمَة ت/ محمد جبّار المعيبد، مكتبة الأندلس، ط الآداب في النجف الأشرف، بغداد، ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.
١٧. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ت/ محمد عبده عزام، دار المعارف ،ط الخامسة من دون تاريخ.
١٨. ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره ليحيى بن مدرك الطائي، وهشام بن محمد الكلبي، ت د/ عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط الثانية ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م،
١٩. ديوان شعر مسكين الدارمي، ت/ كارين صادر ٢٦، دار صادر ـ بيروت ـ ط الأولى ٢٠٠٠م.
٢٠. الذخائر والعبقريات للبرقوقي ١/ ١٣٠ ، مكتبة الثقافة الدينية، مصر من دون تاريخ.
٢١. زهر الأكم في الأمثال والحكم لنور الدين اليوسي، ت د/ محمد حجي، د محمد الأخضر ـ الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٢٢. سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، ت/ إبراهيم مكي طنطاوي، دار الغد الجديد، القاهرة، ط الأولى ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.
٢٣. شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط الثانية ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
٢٤. شرح دلائل الإعجاز د/ محمد إبراهيم شادي، دار اليقين، مصر، ط الثانية ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
٢٥. شرح ديوان الحماسة للأصفهاني، ت/غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
٢٦. شرح ديوان الحماسة للتبريزي، دار القلم، بيروت، من دون تاريخ.
٢٧. شرح ديوان عنترة للتبريزي، ت/ مجيد طرَاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
٢٨. شِعْرُ نُصَيْب بن رباح ت د/ داوُد سَلّوم ـ مكتبة د/ مروان العطية، ط الإرشاد ـ بغداد ١٩٦٧م.
٢٩. الشعر والشعراء لابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، ط ١٤٢٣هـ.
٣٠. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، ت/ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط الرابعة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٣١. طبقات الشعراء لابن المعتز، ت/ عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ط الثالثة، من دون تاريخ
٣٢. الطراز للعلوي، ت د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
٣٣. علم البيان د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار، القاهرة ـ ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
٣٤. العين للخليل بن أحمد تحقيق د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، ط

دار ومكتبة الهلال، من دون تاريخ.
٣٥. الفروق اللغوية للعسكري، ت/ محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، من دون تاريخ.
٣٦. لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت ، ط الثالثة ١٤١٤هـ.
٣٧. مجمع الأمثال للميداني، ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، من دون تاريخ.
٣٨. مختار الصحاح للرازي، ت/ يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط الخامسة١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٣٩. المطول للتفتازاني، ت د/ عبد الحميد هنداوي، لبنان، ط الثالثة ، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.
٤٠. مفتاح العلوم للسكاكي، ت/ نعيم زرزور،. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٤١. المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ت/ وائل أحمد عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، ط الثالثة ٢٠١٣م.
٤٢. المُوشَّح لِلمَرزُباني، ت/ علي محمد البجاوي، نهضة مصر، من دون تاريخ.
٤٣. نقد الشعر لقدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط الأولى ١٣٠٢.
٤٤. الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي، ت/ أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ط ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص البحث.	١١٩٤
المقدمة.	١١٩٩
التمهيد.	١٢٠٢
المبحث الأول: بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بنَبْحِ الكَلْبِ للضيف وزَجْرِه.	١٢٠٥
نَبْح الكَلْبِ للضيف عند إبراهيم بن هَرْمَة.	١٢٠٥
زَجْرُ الكلاب للضيف عند شَبِيب بن البَرْصَاء.	١٢١٣
الصَّنْعة في طريق الإثبات، ورباط التناسب بين زَجْر الكلب وجُبْنِه.	١٢١٧
موازنة بين نَبْح الكلب للضيف عند ابن هَرْمَة، وزَجْر الكلاب للضيف عند شَبِيب بن البَرْصَاء.	١٢٢٠
المبحث الثاني: بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بأُنْس الكلب بالضيف.	١٢٢٤
أُنْس الكلب بالضيف عند نُصَيْب.	١٢٢٤
أُنْس الكلب بالضيف عند ابن هَرْمَة.	١٢٢٨
المبحث الثالث: بلاغة الكناية عن الكرم بالتعبير بمبادلة الكَلام للكلب وفرحه بالضيف.	١٢٢٩
محاولة كَلام الكلب للضيف وفرحه به عند ابن هَرْمَة.	١٢٢٩
نَقْدُ ابن قُدَامَة لابن هَرْمَة.	١٢٣١
الرَّدُّ عَلَى نَقْدِ ابن قُدَامَة لابن هَرْمَة.	١٢٣٢
موازنة بين أُنس الكلب بالضيف عند نُصَيْب، ومحاولة كلامه للضيف وفرحه به عند ابن هَرْمَة.	١٢٣٤
الفرق بين محاولة كلام الكلب للضيف، وأُنْس الكلب بالضيوف، وجُبْن الكلب أمام الضيوف.	١٢٣٨
الخاتمة.	١٢٤٢
فهرس المصادر والمراجع.	١٢٤٦
فهرس الموضوعات.	١٢٥٠